اسرائيل التى رأيتها

لا سلام.. ولا كلام!

عاطف حزين

اهداء

إلى هدى.. ابنتى

كـــى تعلـــم أن أبــــاها حاول أن يكون أســداً فـفشل، ورفض أن يصــبح فأراً.. فنجح.

مقدمة

هذا الكتاب «غلطة» لاتغتفر!

وإن شئنا الدقة.. هـو نتيجة لغلطة واحدة وقـعت فيها، ومـا كان ينبغى أن أقع لولا أنى جبنت عن قول كلمة فى منتهى البساطة.. لا!

ولا أذكر أننى تورطت ذات مـرة فى اقتراف شئ تأباه نفسى، ويـرفضه عقلى، وتمقته كل ذرة فى كيانى. إلا هذه المرة؟!.

كلفونى بالسفر إلى إسرائيل ذات صـباح. لمعت فكرة السفر فى إحدى عينى. ولـم تر الأخرى كلمة إسرائيل!

من المؤكد أن ذلك كان نتيجـة لشعور بالنقص يسكن بداخلى.. كونى أنتمى لجـيل الزحام. فمن الـطبيعى ألا أرفض فكرة السـفر خارج مـصر، وأنا الذى انتظرها طوال احد عـشر عاماً، لم توفدنى خـلالها جريدتى إلا إلى السودان!

وهكذا كنت ـ طوال تلك المدة ـ محروماً من التعلم الحقيقى الذى يأتى من الاحتكاك بأنواع أخرى من الـبشر.. والتعامل مع مناخ آخـر غير مناخ بلدى.. والتنفس فى بيئه مختلفة.. ومن ثم حصد الفوائد السبع للسفر.

وعندما جـاءتنى «إسرائيل» كنت أشبه ـ مـجرد تشبيـه ـ بالعانس التى تحلم بأن تجرب «صنف الرجاله» فجاءها رجل «أى كلام» فقالت لنفسها: «مايضرش.. ضل راجل ولا ضل حيطه!».

ولست فى حاجة ـ بعد هذا الإعتراف ـ إلى القول بأننى لو كنت «شبعان» من «صنف» السفر خارج مصر لقلت لإسرائيل: شكراً.

وبالطبع لم أقلها. وسافرت إلى إسرائيل. عشرة أيام طوال عشتها ما بين عدو وحبيب. كان اليوم هناك «مضروب فى سبعة» حتى خلت نفسى أسيراً ينتظر وصول الصليب الأحمر!.

حاولت أن أرى إسرائيل ـ أرضها وناسها ـ بعين الصحفى، فإذا بكل الأجواء هناك تعيدنى طفلاً بورسعيدياً شردته إسرائيل مرتين، حرمته من مدرسته ومريلته وأصدقاء طفولته، خطفته من بيته ومن «بلاچ» مدينته. وباعدت بينه وبين أبيه.

أعادنى عقاب وحصار وتجويع الفلسطينيين عام ١٩٩٦ إلى شهر يونيه عام ١٩٦٧، فلم أر غصن زيتون أخضر تقاوم رائحته رائحة الموت، ولم أعثر على عش حمام أبيض يبتلع هديله أنات المرضى والجوعى، نظرت حولى جيداً فلم أر سوى رشاش إسرائيلى ماركة «عوزى»!

أجريت حوارات مع الموت والجوع والمرض أكثر مما استمعت إلى من تنبض عروقهم بالحياة، حاولت أن ألملم حروف «السلام» المبعثرة وألصقها إلى جوار بعضها البعض، فلم أعثر إلا على ثلاثة حروف أخرى: ح.. ر.. ب!

سألت الإسرائيليين: ماذا تريدون؟

قالوا: الأمن الشخصى.. الاستقرار والأرض!

وسألت الفلسطينيين: بماذا تحلمون؟

فقالوا: دولة مستقلة عاصمتها القدس.

بحثت عن عالم كيمياء - وليس سياسة - ليوازن بين طرفى هذه المعادلة فأوصانى أحد حكماء الفلسطيتيين بأن أوفر مجهودى!

فى تلك الأرض لا يعلو صوت على صوت التناقض! الإسرائيليون يقولون كلاماً فى نشرة الظهيرة، يتملصون منه قبل ذهابهم إلى النوم. الفلسطينيون يتهمون «حماس» برغبتها فى تدمير إسرائيل، و«حماس» تقر بمبدأ الحوار معها!

حتى سفيرنا فى تل أبيب قال كلاماً يختلف تماماً عما قاله سفيرنا فى غزه. كلاهما مال إلى الجانب الذى يتكلم على أرضه. الحقيقة لا محل لها من الإعراب. حتى العلم الفلسطينى يرفرف على استحياء فوق الضفة وغزة! فهل فهمت قطعة القماش أنها مرفوعة فوق أرض تعانى نوعاً جديداً من الاحتلال اسمه الحكم الذاتى؟!.

هناك قابلت شباب الانتفاضة ورموز حماس. قالوا لى أن ما يجمع بينهم وبين إسرائيل هدنة وليس سلاماً، ذهبت إلى حيدر عبد الشافى شيخ الصامدين فنادى بالجهاد ضد المحتل الإسرائيلى، وقفت على حدود قرية «الخونة» التى تعيش فيها ٤٠٠ أسرة فلسطينية «عميلة». ألم أقل أنها

أرض التناقض؟!.

وعلى الرغم من المعاناة التى كان على مواجهتها فى هذه الرحلة، بداية من تحقيقات الموساد معى هنا فى مطـار القاهرة، ومروراً بتقاعس سفارتنا هناك فى تل أبيب عن تقـديم أية مسـاعدة لـى.. فضلاً عـما لاقـيتـه وأنا أحـاول المرور إلى مناطق الحكم الذاتـى، رغم كل ذلك لم أفكر فى نشـر هذه «الغلطة» فى كتاب.

لكننى تأملت ما حدث فى إسرائيل عقب أن غادرتـها فاكتشفت أن ما سـمعـته هناك فى مـارس هو الذى يحـدث فى أكتـوبر.. وأن التصـريح «الصريح» الذى قال فيه نتانيـاهو أن «دولة فلسطين لن تقوم لها قائمة إلا على جثته» لا يختلف كثيراً عما كان يفعله بيريز فى آخر ايامه. وما رفضه لتسليم «الخليل» فى الموعـد المحدد إلا برهانا على أن نتانيـاهو ليس أسوأ منه، وأن كان اكثر مباشرة وصفاقة ووضوحاً.

ولا أدعى بذلك أننى أصبـت جديـداً. فكل الدراسـات الاسـرائيليـة الفلسطينية لا تبتعد عمـا قلته، وحكامنا العرب يعلمون ذلك تماماً، كل ما فى الأمـر أن الجمـيع يحاولون جـعل «طعم» الحيـاة بجوار إسـرائيل أقل مرارة.. طالما أننا لن نستطيع تغيير الأمر الواقع!.

والذى أثار دهشـتـى فى هذه الرحلة ليس اكـتـشـافى ـ المتـأخـر ـ أن إسرائيل لا تهـمهـا كثيـراً حكاية السلام. ولا أننا ـ كـعرب ـ نفـهـم معنى السلام بصورة غـير التى تفهمـها إسرائيل، ما أدهشنى ـ حـقا ـ هم الذين

سافروا قبلى إلى إسرائيل وعادوا يكتبون وهم فى حالة انبهار وتبشير بالديمقراطية ودهشة من النظام والنظافة والتحضر! حاولت أن أندهش مثلهم فلم أجد إلا ما يصدمنى، جربت أن انبهر مثلهم فلم أقابل إلا ما يثير دموعى، باختصار فشلت فى الكتابة عن إسرائيل كصحفى، فعهدت بالمهمة لطفل بوسعيدى عمره ١٠ سنوات لعله يعرف إسرائيل التى لم نعد نعرفها!

عاطف حزين

القاهرة ـ اكتوبر ١٩٩٦

الفصل الأول

صرخة من بورسعيد؟!

ها هو طارق بن زياد يبعث من جديد ويحرق كل مراكبه ليقول لجنوده: العدو من أمامكم والبحر من خلفكم.. فأين المفر؟

هل يأتى يوم وأنسى ذلك الصباح من شهر مارس ١٩٩٦؟

مستحيل!

لم أكن معتاداً على الذهاب مبكراً يوم الاثنين إلى «أخبار اليوم». وكنت دائما أكافئ نفسى بساعتين نوم زيادة عن المعتاد فى ذلك اليوم قبل أن أذهب إلى جريدتى فى الحادية عشر قبل الظهر.

وحتى أستمتع أكثر بتلك المكافأة ـ النوم ـ لم أكن أعير أى التفات إلى رنين الهاتف القابع إلى جوار مخدعى، خاصة وأن مكالمات ذلك الوقت المبكر لا تخرج عن كونها معاكسات ليس أكثر.

وحين أصر الهاتف على الرنين المتواصل دون أن يمل ذلك الذى يمسك بطرفه الآخر، قررت أن يبدأ صباحى بصب بعض من الشتائم عبر الأسلاك، لعل صاحبنا يتوقف عن الحيلولة بينى وبين مكافأة يوم الاثنين.

لكنه كان زميلى محمد عمر الذى وبخنى على تقاعسى عن الرد و.. و.. وأن الاستاذ محمد طنطاوى مدير التحرير يريد أن يحدثنى فى أمر هام!

لم يزد مدير التحرير ـ كعادته معى ـ عن بضع كلمات: جواز سفرك جاهز؟.. تعالى حالاً لأنك ستسافر إلى إسرائيل.. مع السلامة!

من المؤكد أننى أحلم، آه من تلك الأحلام التى تأتى فى الساعات الأولى من الصباح. وتباً لهذا الحلم بالذات؟!. أننى اتمنى السفر إلى اليابان أو الهند، ولن أتردد لو حملنى الحلم إلى جنوب أفريقيا.. وربما تكتمل سعادتى لو طرت إلى ريودى جانيرو أو ساو باولو.

أنا رجل واقعى حتى فى احلامى، لم أحلم بالسفر إلى هونولولو أو هاواى أو

البهامـاس. لـم أتسكع في الحي اللاتيني بباريس، أو ميـدان الطرف الأغر في لندن، ولـم اجـرأ وأحلم بالتسكـع في ردهات قـصـور بني الأحـمـر.. آخـر ملوكنا في الأندلس.

فهل هذا هو الثواب على واقعيتي.. إسرائيل؟

ظننتـه كـابوسـاً من تلك الكوابيس الـتي تقـتلع من يذهب إلى سـريره دون أن يتـوضأ. عـفوا.. لـن أفعلهـا ثانيـة.. سأحـرص دوماً على الـوضوء تجنبـاً لمثل هذا الكابوس العبري مستقبلاً.

ـ من هذا الذي حدثك في التليفون ولم ترد عليه إلا بكلمه: حاضر؟

سؤال زوجتي المفاجئ طرد آخر فلول النوم من جفني. لـم يكن حلما إذن.. ولـم يكن ـ أيضـا ـ كـابوسـاً، إن هو إلا واقع عليّ أن أواجـهـه بالدخـول إلى الحـمـام وارتداء ملابسي والذهاب إلى أخبار اليوم دون تأخير.

ـ يريدني مدير التحرير أن أسافر إلى اسرائيل.. هكذا فجأة!

تلك كانت إجابتي على سـؤال زوجتي التي أشاحت بوجههـا قبل أن تنصحني بالاعتذار عن عدم السفر، وحين أدركتْ عدم تحـمسي لنصيحتها استطردت بأنهم لابد وقد اختاروني بعد أن اعتذر كل زملائي من قبلي! وحين أيقنت زوجتي عدم نجاحها في استفزازي ألقت بعبارتهـا الأخيرة: «معقول تصوم تصوم.. وتفطر على اسرائيل؟».

الحق انني لم أكن أمتلك في تلك السـاعة من الصباح أي قـدرة على رد الفعل، لـم أستطع أن أواجـه «منطق» زوجتي «بمنطق» آخـر بعد أن سقطت في أسـر سؤال واحد: لماذا أنا؟. ولم يلبث أن صار السؤال طابوراً من علامات الاستفهام، لماذا أنا

محرر التحقيقات بينما يرشح المنطق أحد الزملاء بقسم الشئون الخارجية؟ هل الاستاذ طنطاوى هو صاحب هذا الترشيح؟ هذا أمر مستبعد، فلست على قائمة أولوياته. فهل يكون الاستاذ كمال عبد الرءوف؟ ولا هذا أيضا.. فطريقته فى التفكير تتجاوزنى دائما، لم يبق إلا الاستاذ ابراهيم سعده رئيس التحرير، ولكنه موجود حاليا فى سويسرا، ومع ذلك فهو الوحيد الذى يمكن أن يتخذ هذا القرار. فماذا يحدث لو اعتذرت عن عدم السفر إلى تلك الدولة التى أحمل لها رصيداً لا ينفد من الكراهية والعداوة؟ أين الشجاعة ياربى.. أتراها فى السفر أم فى رفضه؟

ولم أجب على أى سؤال من تلك الاسئلة، حتى توقف بى مترو الانفاق فى محطة جمال عبد الناصر. لماذا لم يجعلوا هذه المحطة أمام باب أخبار اليوم مباشرة حتى ينقذونى من براثن تلك الاسئلة الخانقة؟

وأخيراً وجدت نفسى وجها لوجه مع الأستاذ محمد طنطاوى، نسيت إلقاء التحية وقلت له مباشرة: ممكن فرصة أفكر؟

لم يرد على سؤالى، والتفت إلى التليفون الداخلى وطلب ثلاثة أرقام. ثم قال لمن رد عليه: تأشيرة إسرائيل تكون جاهزة النهارده بإسم عاطف حزين والمصور الذى سيحدده رئيس قسم التصوير.

ثم ابتسم الاستاذ طنطاوى وقال لى: توكل على الله.. هذه المهمة ستفيدك كثيراً، فما يحدث الآن فى إسرائيل والأرض المحتلة يثير شهية أى صحفى بغض النظر عن موقفة من إسرائيل. أظنك فهمتنى، لكننى لا أظنك تعلم أن الاستاذ ابراهيم سعده هو الذى رشحك.. فهل ستخذله؟

ها هو طارق بن زياد يبعث من جديد ويحرق كل مراكبه ليقول لجنوده: العدو من أمامكم والبحر من خلفكم.. فأين المفر؟

ولكن كيف أجعلهم يختمون إحدى صفحات جواز سفرى بشعار دولة إسرائيل؟ هل توجد وسيلة أخرى؟

فجأة تراجع الصحفى بداخلى، وحل محله طفل بورسعيدى ولد عام ١٩٥٨ عقب العدوان الثلاثى بخمسة عشر شهراً ومرارة العدوان مازالت تسكن أبيه وأمه وخاله وعمه، طفل أدرك ـ قبل سن الادراك ـ أن اليهود تسببوا فى تشريد أسرته فى فجر أحد الأيام ليجدوا أنفسهم أمام بحيرة المنزلة فى انتظار من يجدف بهم بعيدا عن شاطئ بورسعيد الملتهب!.

كيف أنسى أختى وهى تسأل أمى ونحن نهاجر مرة أخرى فى الصباح الباكر فى سيارة توزيع أخبار اليوم هل سنموت يا ماما؟.

هربنا بملابس النوم لنمضى ست سنوات كاملة بعيداً عن أرض «الوطن».. بورسعيد، فهل يمكن أن أصفح عن اليهود؟

أعلم أن هناك مبادرة سلام.. أعلم أن هناك اتفاقية وقعت فى كامب ديفيد.. وأعلم أن هناك معاهدة سلام وقعها الرئيس الراحل أنور السادات مع بيجن وبينهما كارتر، لكننى لا أستطيع أن أنزع قلبى وأضع مكانه قلباً آخر حتى ولو ضمن لى الدكتور مجدى يعقوب نجاح العملية!.

كيف أنسى كلمات الأستاذ محمود بركات مدرس اللغة العربية بمدرسة النصر الابتدائية ببورفؤاد وهو يودعنا فى آخر يوم دراسة بعد أن قرروا إغلاق مدارس بورسعيد: «سنظل فى حرب مع اليهود حتى قيام الساعة، هكذا يقول القرآن.. فهل تصدقون كلام الله؟».

طبعاً يا أستاذ بركات.. فإذا لم نصدق القرآن، فمن أجدر بالتصديق؟!.

لا أعرف أين يعيش الأستاذ محمود بركات الآن، لكننى أعرف أننى ـ مع اقترابى من بوابة الاربعين ـ مازلت ذلك الطفل الذى يرى اليهود مرادفاً للراية السوداء التى كنا نرفعها فوق أسطح منازلنا عقب «نكسة» ٦٧، ومازلت أحفظ الدروس التى كان يلقنها لى خالى «العربى».. جندى الاستطلاع.. فى كل إجازة ميدانية. لم يكن يفكر إلا فى ساعة الخلاص، كان يشحننى وكأننى سأحارب معه، وكان يسعد بما يفعله الفييتناميون بالأمريكيين فى أحراش فييتنام، وكأنه يعوض نفسه عن فترات الاستنزاف والانتظار! هل أنسى الحزن الذى كان يكسى وجه أمى والذى انقلب فجأة إلى زغرودة حين تلقينا ـ ونحن فى دمياط ـ نبأ تدمير المدمرة إيلات فى مدخل بورسعيد؟.

كنت أصدق كلمات خالى «العربى» وهو يقسم لى على المصحف الذى لا يفارق جيبه أن الجيش المصرى سيمزق اليهود إذا أتيح له خوض معركة حقيقية، وكنت أرد عليه وأنا أصحبه ـ كعادتى ـ إلى محطة القطار عقب انتهاء اجازته: أتمنى أن أحصل على شهادتى الإعدادية من بورسعيد، لا أريد شهادة أخرى من دمياط فهل يمكن أن يتحقق ذلك خلال عام واحد؟

وبفضل خالى العربى وزملائه الأبطال قضيت المرحلة الثانوية ـ كلها ـ فى بورسعيد، وإصرارا على ارتباطى بأرضها لم أشأ أن أغادرها فى المرحلة الجامعية إلى كلية الإعلام بالقاهرة، وفضلت أن أقدم أوراقى إلى كلية التجارة ببورفؤاد.. بجوار مدرسة النصر الابتدائية التى تعلمت فى فصولها دروس الأستاذ بركات.

بعد كل ذلك.. كيف يمكن أن أذهب إلى إسرائيل.. وكيف سيكون رد فعل أصدقائى فى بورفؤاد وبورسعيد؟ هل يغفروا لى لأنها مهمة عمل لايجب أن أهرب منها؟ هل سيباركون لى لاننى سأصلى وأدعو لهم فى المسجد الأقصى؟

لماذ لا أجرب بالونة اختبار مع أقرب الناس إلى قلبى.. أمى؟.

كل يوم كنت أحادثها تليفونيا من مكتبى بالجريدة، لكن هذه المرة كان الأمر شاقاً على نفسى، حين وصلنى صوتها حاولت الالتفاف حول الموضوع وقلت لها:

ـ رئيس التحرير رشحنى للسفر فى مهمة صحفية خارج مصر.

ـ مبروك يا ابنى.. ويا ترى أوربا ولا أمريكا؟

ـ لا أبداً.. بلد قريب جداً منا.. ساعة ـ يادوب ـ بالطائرة.

ـ أوعى تكون السودان تانى.

ـ لا.. سأسافر ان شاء الله إلى القدس وسأصلى فى المسجد الأقصى وسأقابل أبو عمار ورموز الثورة الفلسطينية الذين أحببتهم وأنا صغير.

ـ القدس.. المسجد الأقصى! انت رايح إسرائيل ولا ايه؟

ـ يعنى.. حاجة زى كده.

وتنطلق صرخة من أمى لم أسمعها من قبل إلا حين أخبرونا ونحن فى دمياط أن اليهود دخلوا رأس العش.

وبعد أن هدأت الصرخة أعقبتها عشرات الرجاءات بأن اعتذر عن عدم السفر لأن اليهود هم الذين فعلوا بنا.. وهم الذين أذاقونا المر، وهم قتلة الأنبياء وهم لايريدون السلام. ياخبر اسود يا عاطف.. أنت صدقت حكاية السلام بيننا وبينهم؟

ـ يا أمى لا تخافى.. هناك علاقات دبلوماسية بيننا وبينهم، ثم أنا مسافر أساساً إلى أراضى الحكم الذاتى، يعنى غزة والضفة، وسأمر ـ بالطبع ـ على القدس، ولن

أمكث فى تل أبيب اكثر من ساعات.

ـ لكننى سمعت فى نشرة الثانية والنصف أن مناطق الحكم الذاتى محاصرة بسبب اليهود اللى ماتوا فى تل أبيب فكيف ستدخل؟

ـ يا أمى أنا صحفى.. ولن تكون هناك مشكلة فى الدخول ان شاء الله بشرط أن تدعى لى بالتوفيق.

ـ لا.. أنا هتكلم مع الاستاذ إبراهيم سعده فى التليفون وأرجوه أن يعفيك من السفر إلى إسرائيل.. هو بورسعيدى وأكيد عارف أد أيه احنا بنكره اليهود.

ـ الأستاذ إبراهيم فى سويسرا.. وبعدين أنا نفسى أصلى فى المسجد الأقصى، أرجوك لاتصعبى على المهمة.

ـ يعنى مفيش فايده معاك؟

ـ لا تخافى.. لو كان سيصيبنى مكروه من اليهود لحدث فى ٦٧ أو مع اندلاع حرب الاستنزاف، هل نسيت القنابل التى كانت تسقط بجوارنا؟

ـ هل يمكن أن أراك قبل أن تسافر؟

ـ للأسف ـ يا أمى ـ الوقت ضيق جداً، وضرورى أسافر بكره.

ـ هل ستتأخر هناك؟

ـ عشرة أيام.. وربما لاتطول المدة أكثر من أسبوع.

ـ ضع المصحف فى جيبك.. لاتتركه.

ـ حاضر.

ـ لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله.

الفصل الثانى

يوم القيامة

كل دقيقة كنا نسقط عشر طائرات للعدو الإسرائيلى، وما هى إلا ساعات ويدخل الجيش المصرى تل أبيب ويلقى بإسرائيل فى البحر!

سألنى مدير العلاقات العامة بالجريدة عما إذا كنت أريد السفر على متن الخطوط الوطنية أم على متن خطوط شركة «العال» الإسرائيلية؟ قلت له بدون تفكير: فلنجعلها إسرائيلية من ألفها إلى يائها!.

بعدها تنبهت إلى أنه ما كان يجب أن أنفرد بهذا القرار وحدى، فالزميل ابراهيم مسلم المصور الذى سيرافقنى كان يجب أن أشركه فى القرار. ولكننى ما كنت أظنه سيمانع، فلعله يريد ـ مثلى ـ معايشة التجارب الجديدة.

لكن مسألة «العال» لم تكن تنطوى ـ فى واقع الأمر ـ على رغبة فى الاستكشاف، بقدر ما كانت رغبة فى وضع نفسى داخل الغلاف الجوى الإسرائيلى وأنا فى مطار القاهرة. فإذا ما حطت طائرتهم فى مطار بن جوريون يكون وقع الصدمة أخف مما لو كانت طائرتى مصرية يقودها طيار مصرى ومعه مضيفات مصريات.

لكننى دفعت ثمن هذا الاختيار غالياً؟!.

لم يكن اسم ابراهيم مسلم ـ زميلى المصور ـ غريباً على بالطبع، لكن الغريب ـ حقا ـ انه كان المصور الوحيد فى دار أخبار اليوم الذى لم يسعدنى الحظ بالعمل معه طوال عشر سنوات صاحبنى خلالها كل الزملاء فى قسم التصوير فيما عداه.

ومع كل ما سمعته من مديح لشخصه وكفاءته، أعترف أن رغبتى ـ فى البداية ـ تعارضت مع ترشيح قسم التصوير، كنت أفضل وأنا انتقل من زمن إلى زمن، ومن أرض أحبها إلى أرض أكرهها أن يصاحبنى زميل يماثلنى فى العمر عملت معه مراراً من قبل. فلست فى حاجة إلى حواجز نفسية تضاف إلى الحواجز التى سأقابها فى إسرائيل، فالحاج ابراهيم مسلم رجل «خمسينى» العمر، وأنا «ثلاثينى» العمر، والحل أن أحطم هذا الحاجز هنا فى القاهرة قبل أن نصل إلى المطار.

وقـررت أن تكون بداية تعارفـى على الحاج ابراهيم مـسلم على مـقهى شـارع الصحـافة. اكتشـفت أنه ـ مثلى ـ يعشـق الشيشة، وبين سـحب دخانها ورشـفات الشـاى تحـدثنا فى كل شئ إلا مـهـمـة السـفـر، حـتى عندمـا ذهبنا إلى السـفـارة الإسرائيلية لاستلام التأشيرة لم يسأل أحدنا الآخر: ماذا سنفعل هناك؟!.

يوم كامل ـ إلا قليلاً ـ أمـضيته مع الحـاج ابراهيم، استهلكنا ـ خلاله ـ خـمسين باكو معسل، ونصف كيلو شاى وبعضـاً من رصيدنا من الحكاوى! اكتشفت ـ بعد أن ذهب كل منا ليعـد حقيبتـه ـ أن هذا الرجل كنز كان بجوارى دون أن اكتـشفه! اكـتشـفت ـ ويا للغـرابة ـ أن منزله يبـعـد خطوات قليلة عن منزلى بحـى حلميـة الزيتون! كل هذا ولم نتقابل مصادفة أو فى عمل. أكتشفت ـ وهذا هو الأهم ـ انه يمقت إسرائيل والإسرائيليين، وإذا كان فى السفر ـ كما يقولون ـ سبع فوائد، فإن هذه الاكتشافات كانت فائدتى الأولى من السفر إلى إسرائيل.

***

كان موعـد اقلاع طائرة شركة «العـال» فى تمام العاشرة من مسـاء الاربعاء، فى ظروف السفر العادية لابد أن يتواجد المسافـر فى المطار قبل السفر بساعتين، لكنهم أخـبرونا فـى مكتب طيران الـعال بضـرورة التـواجد فـى المطار قبل السـفـر بأربع ساعات على الأقل!.

ولأن رفيق رحلتى يسكن إلى جوارى فى الحـلمية، كان طبيعـياً أن تبدأ الرحلة إلى إسرائيل من ميدان الحلمية حيث انتظرنا محمد البدرى سائق أخبار اليوم.

وطوال الطريق إلى المطار لـم ينبس ثلاثتنا بحـرف، محـمـد البدرى الذى كـان لايمل من الكلام احتـرم رغبتـنا فى الصمت والتأمل والاسـترجاع وأشـياء كثـيرة أعلم ما يخصنى منها.

وكان ما يخصنى.. ثقيلاً.. حاراً.. وموجعاً؟!

تذكرت أبى - الحاج جمعه - وهو يوقظنا فى فجر أحد أيام شهر يونية من عام ١٩٦٧. حين فتحت عينى التقطت صورة أمى وهى تجمع بعض الملابس فى حقيبة يد صغيرة. بمجرد أن تنبهت إلى استيقاظى أمرتنى بأن أغير ملابسى بسرعة وأساعد أختى «أمل» فى ارتداء ملابسها، أما أبى فقد تولى مساعدة أخى «محمد» فى ارتداء ملابسه، خمنت وأنا فى تلك السن - العاشرة - أننى لا يجب أن اجرأ وأسأل أبى سؤالاً بسيطاً كان يلح على:«فيه إيه»؟.

كنت أريد أن أعرف مصدر هدير المدافع وأزيز الطائرات الذى يصم آذاننا، بينما تردد أمى عبارة واحدة: سترك يا رب.. سترك يا رب.. سترك يا رب.

كل هذا تم فى دقائق.. ما بين استيقاظنا وخروجنا جميعاً مع أبى وأمى وكل جيران شارعنا.. وكل سكان مدينتنا الصغيرة التى تنتمى إلى سيناء جغرافياً وإلى بورسعيد واقعياً وإداريا، وجدنا أنفسنا أمام «المعدية» التى ستعبر بنا إلى بورسعيد، أكثر من ٣٠ ألفا يريدون النجاة بأنفسهم واقتحام المعدية، كان التدافع بيننا كأنه يوم القيامة العجائز الذين لم يجدن من يحملهن سقطن تحت الأقدام الزاحفة والأطفال الذين أفلتت ايديهم من أيدى ذويهم ضاعوا فى مياه القناة، فكيف استطاع أبى أن يمسكنى بيد ويحمل شقيقى على «ذراعه» الأخرى؟ بل كيف تمكنت أمى من حمل شقيقتى مع حقيبة الملابس ومرت من وسط هذا الزحام القاتل لنصل إلى بيت خالتى فى بورسعيد.. الأكثر أماناً من بورفؤاد؟!.

ومع ذلك لم نكن نلتمس الأمان فى بيت خالتى، فقد كان مجرد محطة توهمنا أنها اكثر أمناً من بيتنا، لكن هذا الوهم كان يتبخر مع اهتزاز البيت مع كل أزير وإثر كل هدير وانفجار حتى ظننا أننا - حتما - سنموت تحت انقاض هذا البيت

العتيق.

أخيراً اعتبرتنى أمى كبيراً وصارحتنى بأننا سنهاجر من بورسعيد إلى أى مدينة أخرى إذا احتل اليهود سيناء.

لكن كل الأخبار ـ التى سمعناها فى الراديو تشير إلى أن مخاوف أمى لا أساس لها. فكل دقيقة كنا نسقط عشر طائرات للعدو الإسرائيلى، وما هى إلا ساعات ويدخل الجيش المصرى تل أبيب ويلقى بإسرائيل فى البحر! . كنا نهلل مع كل خبر انتصار، فخفت حدة التوتر لدى جميع أفراد العائلة، لدرجة أن زوج خالتى أراد أن ينافس بيانات الراديو فزعم أن طائرة إسرائيلية سقطت فى عزبة فاروق على بعد خطوات منا وأن الناس أسروا الطيار اليهودى وأشبعوه ضرباً! وطبعاً صفقنا لخبر ـ أو لفشر ـ زوج خالتى، بعدها عادت الابتسامة إلى وجه أبى وقال: خلاص لن نهاجر.. وسنظل هنا فى بورسعيد.

وينزل الحاج جمعه إلى الشارع يتسقط المزيد من الأخبار ليعود بأفضل مما زعمه زوج خالتى وليعرف ماذا تم مع الطيار الإسرائيلى الأسير..

ويعود أبى بعد ساعتين عابساً مُنكسا وجهه وكأنه أرتكب امراً مخجلاً، حين سألناه جميعاً عما حدث لم يزد عن قوله: استعدوا.. سنترك بورسعيد ليلاً، يبدو أننا نحن الذين انسحبنا وليس اليهود، وران الصمت على الصغير والكبير لأكثر من نصف ساعة، قطعها رجال العائلة بأوامر صارمة بالاستعداد، كانوا قد عقدوا العزم على السفر عبر بحيرة المنزلة لأن الطريق الذى يربط بورسعيد بدمياط خطير.. وأخطر منه الطريق الذى يربطها بالاسماعيلية، فكلاهما فى مرمى نيران العدو.

ومثلما تجمع سكان بورفؤاد أمام المعدية تجمع سكان بورفؤاد وبورسعيد ـ معا ـ

على شاطئ بحيرة المنزلة لتحملنا المراكب الشراعية الكبيرة إلى مدينة المطرية التابعة لمحافظة الدقهلية، كانت المراكب محملة بأكثر من حمولتها، فكنت ألمس مياه البحيرة بيدى وأنا جالس إلى جوار أبى، وأحيانا كانت المراكب التى تقلنا تجنح إلى منطقة ضحلة فيتدافع الرجال لإعادتها إلى العمق لتواصل رحلتها الطويلة جداً جداً.

ورغم البكاء والعويل والنحيب الذى أحاط بالمهاجرين، ضج الجميع بالضحك حين صاحت جدتى بعد طول صمت: «تلاقى أبولمعة بتاع ساعة لقلبك هو اللى كان بيذيع البيانات الحربية فى الراديو!».

ولكنه كان ضحك كالبكاء، لأن أبولمعة نفسه لم يكن ليتفوق على ذلك الكذب ـ وليس الفشر ـ الذى قدمه لنا المذيع أحمد سعيد، والذى جعلنا نحن الصغار نحلم بأن يحتفظ كل منا بقطعة من إحدى طائرات العدو ويحولها إلى «دبلة فضة» فى أصبعه دليلاً على انتصارنا!.

وهبطنا إلى شاطئ المطرية، واستقبلنا أهلها بالأحضان وبالأرز والسمك المشوى، ومع هذه الحفاوة بدا أنه ليس لنا مكان.. حيث احتل ركاب المراكب التى سبقتنا ماتوفر لدى سكان هذه المدينة الفقيرة التى يعتمد سكانها على الصيد.

وقرر أبى أن يذهب بنا إلى كفر الشيخ مع جيراننا فى بورفؤاد، وحملتنا الاتوبيسات التى وفروها لنا إلى إحدى المدارس بمنطقة ريفية اسمها «سيدى سالم». فى كل فصل دراسى وضعوا ثلاث عائلات.. كل عائلة تحتل ركنا مجهزاً ببطانية مفروشة على الأرض ومعها مخدتان صغيرتان.

أسبوع كامل قضيناه فى تلك المدرسة قام خلاله الناموس بما فشل اليهود فى فعله معنا، لم نضحك ضحكة واحدة خلال تلك الفترة، لم يضُبط أحدنا متلبساً

بالابتسام، وكنت أهرب من هذه الكآبة إلى إحدى السواقى خلف المدرسة أستمع إلىَ خرير الماء من خلال دورانها محاولاً ألا أعود إلى الفصل الذى لم يكن يشبه فصل مدرستى فى بورفؤاد.

وجاءنى أخى الأصغر فى مكانى الأثير ليخبرنى بأننا سنذهب جميعا إلى بلد اسمها سمنود حيث يسكن هناك أقارب لجيراننا عرضوا استضافتنا حتى تهدأ الأمور.

فى هذه المرة حملونا على سيارة نقل أفرغت حمولتها من البطيخ فى كفر الشيخ وحملتنا وهى عائدة إلى سمنود. الله يلعن اليهود، هكذا كانت تردد أمى وهى تتهمهم بأنهم السبب فى تشريدنا بين بلاد الناس، وأثناء الرحلة من كفر الشيخ إلى سمنود عرفنا الحقيقة التى لم يذعها الراديو، والغريب أننا كنا نشعر بأن هذه الهزيمة حاقت بنا وحدنا نحن سكان بورسعيد وليس سكان المدن التى ذهبنا اليها، كنا نعتبر أنفسنا وطنا مستقلاً قائماً بذاته وإن المطرية وكفر الشيخ وسمنود أوطان أخرى لم تذق ـ مثلنا ـ مرارة الهزيمة! ياله من شعور موحش زاد من قسوته أن التعبيرات التى كنا نراها على وجوه الناس ـ الذين لاينتمون إلى بورسعيد ـ مختلفة تماماً عما يرتسم على وجوه أمى وأبى وجيرانى.

ولم يكن الحال فى سمنود أفضل كثيراً من الحال فى كفر الشيخ فلقد حرم اليهود الراحة علينا فى كل مكان.

ولم يطل مقامنا أكثر من أسبوع.. قالوا لنا بعده أننا يمكننا العودة إلى بورسعيد حيث تم اعلان وقف إطلاق النار، تصورت أن أبى وأمى سيفرحان بالخبر، لكنهما ازدادا عبوساً وعرفت من حديثهما أن اليهود احتلوا سيناء كلها عدا بورفؤاد.. وأن جيشنا هرب إلى الضفة الغربية للقناه عدا عدة كتائب تمركزت فى رأس العش.

ومرة أخرى تكرم سائق سيارة البطيخ بحـملنا إلى بورسعيد ومثلما تركنا ديارنا فـجراً عـدنا اليـهـا ـ أيضـا ـ فى الفـجر، لكـن السائق الكـريم رفض أن يدخل بنا بورسعيد وتركنا على حدودها أمام المقـابر ولم نجد وسيلة تنقلنا إلى بورفؤاد سوى عربة كاروا عائدة من الجبانة كان سائقها يردد طوال الطريق: وحدووه!.

الفصل الثالث

موعد مع الموساد!

.. وكان على بعد ذلك أن أخوض حوارا طويلا مملا وشاقا، مع فتاة إسرائيلية مدربة جيدا على قراءة أغوار نفسك!

كنا أول من وصل إلى صالة سفر ركاب الطائرة المتجهة إلى تل أبيب، المفروض أن كل خطوط الطيران الأجنبية تقلع من المطار الجديد، لكن الإسرائيليين أصروا على أن تقلع طائراتهم من نفس المطار الذى تقلع منه الطائرات المصرية.. تماماً مثلما فضلوا أن تكون سفارتهم فى القاهرة عبارة عن دور سكنى فى عمارة يسكنها المصريون. إنها نظرية الأمن الإسرائيلية!.

وبينما كنت ـ ومعى ابراهيم مسلم ـ ننتظر بدء اجراءات السفر، عرفنا من المصريين الواقفين على مدخل صالة السفر أن طاقماً اسرائيلياً هو الذى سيتولانا من باب الصالة حتى باب الطائرة، ولن يكون هناك سوى ضابط الجوازت المصرى الذى سيختم جواز السفر بختم المغادرة!.

حتى العمال المصريون الذى يحملون الحقائب يرتدون أفرولات مكتوب على ظهرها بالعبرية «العال»!.

وبدأ زملاء الرحلة يتوافدون، اكثرهم يهود.. وبعضهم أمريكيين، لم يكن من بين الركاب من تشرب وجهه بماء النيل، أو من يحمل على جبهته شعار شمس مصر سوى شخصين: إبراهيم وأنا!.

وها هو الفريق الاسرائيلى الذى سيتولى الإجراءات، ثمانى فتيات فاتنات وأربعة شبان منهم رئيس الفريق الذى رمانا بنظرة شاملة سريعة توقفت عندنا للحظات لأقرأ فيها سؤالاً: ما الذى أتى بكم إلينا؟.

طلبت من زميلى أن ننتظر فى آخر الصف حتى لايبدأ اليهود يومهم بنا، كانت كل فتاة إسرائيلية تتقدم من الراكب الواقف بالطابور وتأخذ منه جواز السفر والتذكرة وتقوله له: إتبعنى، ويضع الراكب حقائبه على طاولات نقالة أعدت خصيصاً للخطوط الإسرائيلية بحيث يتم طيها عقب انتهاء الاجراءات، بعد أن

تتفحص الفتاه جواز السفر جيداً تدخل فى حوار طويل هامس مع الراكب لم نستطع من مكاننا الإلمام بتفاصيله خاصة وأننا لم نكن خبيرين فى لغة «الليبسيز» أو قراءة الشفاه. كانت تفرج عن بعض الركاب بعد عشر دقائق تطول أحياناً مع آخرين، وتقصر مع الإسرائيليين، وفى كل الأحوال لم يفلت راكب واحد من هذا الحوار الذى كانت تديره الفتيات والشباب بمنتهى الجدية والصرامة والتجهم!.

وحين أصابنى الدور تقدمت منى شقراء نحيلة تمشى كراقصة باليه من «البولشوى». للحظة تصورت أنها مهاجرة روسية إلى إسرائيل، لكن انجليزيتها الطليقة التى تحمل اللكنة العبرية جعلتنى أبصم بالعشرة بأنها مولودة فى إسرائيل وكان على بعد ذلك أن أخوض حواراً طويلاً مملاً وشاقاً مع فتاة مدربة جيداً على قراءة اغوار نفسك.

- جواز سفرك من فضلك؟

- اتفضلى

- أوو.. مصرى؟!.

- الحمد لله

- هل هذا الشخص معك؟.

- نعم.. انه زميلى المصور.

- هل يمكنه التحدث بالانجليزية؟

- اعتقد ذلك.

- حسنا.. سنحضر له من يتحدث معه.. والآن هات حقيبتك واتبعنى إلى هذه الطاولة.

ـ ولماذا لايكون زميلى معى خاصة ونحن فى مهمة مشتركة؟

ـ اجراءاتنا تقضى بأن ينهى كل راكب اجراءته بمفرده.

ـ حتى لو كنا فريقاً واحداً؟.

ـ لا شأن لنا بذلك.

ـ أنا تحت أمرك.

ـ هل هذه أول مرة تسافر إلى إسرائيل؟.

ـ نعم

ـ وما سبب سفرك إلى هناك؟.

ـ مهمة صحفية.

ـ المهمات الصحفية أنواع.. فما هى مهمتك على وجه الدقة؟.

ـ استكشاف مستقبل السلام فى المنطقة عقب اغتيال رابين والعمليات الانتحارية التى قام بها أفراد حركة حماس فى القدس وعسقلان وتل أبيب.

ـ حسناً.. من الذى حصل لك على التأشيرة؟.

ـ أنا حصلت عليها بنفسى من سفارتكم.

ـ ومن حجز لك تذكرة السفر؟.

ـ موظف بالعلاقات العامة بجريدتى؟.

ـ إذن جريدتك هى التى تمول هذه الرحلة.. اليس كذلك؟.

ـ نعم.

ـ ما اسم هذه الجريدة؟.

ـ أخبار اليوم.

ـ انها مشهورة جداً على مستوى العالم

ـ شكراً لهذه المجاملة

ـ ما هى المدة التى تنوى قضاءها فى إسرائيل؟.

ـ أسبوع.. وربما عشرة أيام.

ـ هل لديك قائمة بالأشخاص الذين ستقابلهم هناك؟.

ـ نعم.

ـ أين؟.

ـ هنا.. فى رأسى.

ـ هل كلهم إسرائيليون؟.

ـ بعضهم إسرائيليون وبعضهم عرب.

ـ عرب من أى نوع.. أقصد عرب إسرائيل أم عرب المناطق؟

ـ عرب الحكم الذاتى.

ـ من تتوقع أن ينتظرك فى مطار بن جوريون؟

ـ اعتقد أن موظفاً بسفارتنا سيكون هناك.

ـ وهل أعدت سفارتكم كل المقابلات؟.

ـ ليس بعد.

ـ وهل تعتقـد أن المسئولين الإسرائيليين الذين تود مقابلتهم سيساعدونك فى مهمتك؟.

ـ آمل أن يفعلوا.

ـ لا داعى لانزعاجك هكذا إنها مجرد اجراءات أمن لتأمين ركاب الطائرة.

ـ ولكن أسئلتك استخبارية وليست تأمينية، ومن المؤكد أننى لن استخدم طائرات العال مرة أخرى.

ـ حتى ركاب الطائرة المصرية يواجهون ذلك ولكن فى مطار بن جوريون.

ـ أن يتم ذلك عندكم شئ.. وأن يتم هنا ـ عندنا ـ شئ آخر يغيظ.

ـ حسنا.. ماذا تحمل فى هذه الحقيبة.. لاتفتحها؟!.

ـ ملابس تكفينى.. أوراق.. أقلام وجهاز تسجيل وأجندة مواعيد وأدوات حلاقة ومعجون أسنان واسبراى، وزجاجة عطر وشبشب.

ـ هل انت الذى أعددت حقيبتك بنفسك؟.

ـ زوجتى ساعدتنى.

ـ متى أعددتها؟

ـ مساء أمس.

ـ وهل وجدتها فى مكانها الذى تركتها فيه عندما استيقظت صباح اليوم؟.

ـ بالتأكيد.

ـ هل أعطاك أحد رسالة لتوصيلها إلى شخص ما فى اسرائيل.. أعنى هدية أو خطاب؟.

ـ لا.

ـ هل يمكن أن ألقى نظرة على جهاز تسجيلك؟.

ـ بكل سرور.

ـ منذ متى وأنت تمتلك هذا الجهاز الظريف؟.

ـ منذ عامين.

ـ إذن فأنت تعرف جيداً طريقة استعماله؟.

ـ نعم.

ـ لم تخبرنى بأنك تحمل هذا العدد الكبير من شرائط الكاسيت؟.

ـ وهل يوجد جهاز تسجيل بدون شرائط؟.

ـ حسنا.. دعنا نجرب كيف يعمل هذا الجهاز.

وبعد أن جربت الجهاز كان قد مضى حوالى ٣٠ دقيقة فى هذا الحوار الذى كان يقطعه الشخص الذى يحاور زميلى ابراهيم ويسألها بعض الاسئلة باللغة العبرية وتجيب عليه، ثم قالت لى أخيراً:

شكراً جزيلاً ونتمنى لك رحلة موفقة.

كنت قد استهلكت خمسين منديل «كلينكس» لأجفف العرق الذى تصبب منى وأنا أقف أمام فتاه ـ لا تزن أكثر من خمسين كيلو جرام ـ كالتلميذ الذى تكاسل فى أداء واجب المدرسة.

وحين أفرجوا عن الحاج ابراهيم سألته عما فعلوا معه.. لكن المنديل الذى كان يمسح به عرقه أعفانى من الاجابة واكتفى هو بسؤالى مستهجناً: «إيه الناس

دول؟».

لأن إسرائيل دولة تقتات الأمن فلابد أن هذا الطاقم الذى عصرنا ـ ينتمى إلى الموساد وليس إلى شركة العال كما ادعت الشقراء، فهل انتهى كل شئ بعد أن ختمنا الجواز وذهبنا إلى دورة المياه.. وتجولنا فى الأسواق الحره؟ أبداً!.

حين نادوا على الطائرة المتجهة إلى تل أبيب إتجهنا إلى الصالة الصفراء التى سنعبر منها إلى أرض المطار، على بابها كانت تقف فتاة إسرائيلية أخرى، أجمل كثيراً من زميلتها وإن كانت أثقل ظلاً، سألتنى هذه اسئلة من نوع آخر ـ هذه المرة ـ أضحك.

ـ هل اشتريت شيئا من كافتيريا المطار؟.

ـ نعم.

ـ أين هو؟

ـ أكلته وشربته.

ـ ألم تشتر هدايا من السوق الحرة؟.

ـ أبداً.

ـ هل اتصل بك أحد أثناء انتظارك وأعطاك رسالة لأحد فى إسرائيل.

ـ أبداً.

ـ وأنت ألم تجر أية اتصالات.

ـ نعم.. تحادثت مع زوجتى وابنتى.

ـ إذن تفضل جوازك.. تصحبك السلامة.

صعدنا ـ أخيراً ـ سلم الطائرة، كانت تقف بعيداً وحولها طوق أمني رهيب، وكان فريق الأمن ينظر إلى كل راكب وكأنه سيختطف هذه الطائرة.. بينما كانت المضيفات الإسرائيليات يبتسمن للركاب ابتسامة واسعة جداً وهن يشرن إلى مكان المقعد، تناقصت مساحة الابتسامة قليلاً حين وجدن أنفسهن أمامنا.. لكن الإبتسامة لم تختف تماماً. وحين أغلقوا علينا باب الطائرة استعدادا للاقلاع نظرت من النافذة وصافحت بعيني جندي الأمن المصرى الذى كان يقف بجوار الطائرة، لمح ابتسامتى له فرد بأحسن منها، وكان هو آخر روح مصرية ألمسها قبل أن يحتضن السحاب طائرة العال الإسرائيلية.

ظننت ـ وليس كل الظن إثما ـ أن الخدمة على الطائرة ستعوض عذاب التحقيق على الأرض، بدافع الفضول كنت أتوق إلى معرفة ماذا سيقدمون للركاب. فوجئت بكل مضيفة قد شمرت عن ساعديها وامسكت بسلة بين يديها تمر بها بين الركاب، لم أكن أعرف ـ وأنا فى منتصف الطائرة ـ ماذا تحمل تلك السلة، ولكن عندما اقتربت المضيفة اكتشفت أنها تحمل ساندوتشات لانشون صغيرة من الحجم الذى يقدمه محل «صب واى» للأطفال، ووراء كل مضيفة تحمل السلة مضيفة أخرى تحمل صينية عليها أكواب بلاستك مثل التى يعطونها للمرضى فى معامل التحليل لأخذ عينات البول، ويبدو ـ من لون السائل ـ أن هذه الأكواب تحمل عصير برتقال. وحين وصلت الينا «مائدة الطعام» هتفنا أنا وزميلى إبراهيم مسلم فى صوت واحد «نو.. ثانك يو» ثم ضحكنا عاليا لهذا الاتفاق الذى لم نتفق عليه.. ويبدو أن صوت الضحك أزعج بعض الحاخامات فنظروا إلينا شذراً وقرفاً.

قلت لابراهيم: ألا تأكل طعام اليهود؟ فقال: مستحيل طبعاً. فقلت له ولكن

هذا الساندوتش مجـرد «تصبيره» وسيمرون علينا الآن بالولائـم فقال لى ضاحكا: «انت فاكر نفسك مسافر على الخطوط الـسعودية اصحى.. احنار راكبين فى طيارة يهود».

شكرا يا حـاج ابراهيم على هذه الملاحظة لقـد سمعت كـثيـراً عن بخل اليـهود ولكنى لـم أره بعينى إلا على هذه الطائرة. وكانت هذه هى الفـائدة الثانية من فوائد السفر.

الفصل الرابع

ذات مساء ..
فى تل أبيب

لقد تغيرت أشياء جوهرية عقب اغتيال رابين على يد المهووس اليمينى الإسرائيلى عامير. وها هو خلفه ـ الأقل حنكه ـ يواجه امتحانا عسيرا ربما يطيح به إلى مقاعد المعارضة بعد أن علا صوت زعيم الليكود الطائش

ساعـة إلا قليلاً مكثناها بين السحـاب؛ انخفضت بعدها درجـة الإضاءة داخل الطائرة مع إعلان داخلى بصوت نسائى «مزكوم» ناطق بالانجليزية: نقترب الآن من مطار بن جوريون.. الرجـاء ربط الأحزمة ووضع المقـعد فى وضع عمـودى وعدم التدخين.

بمجرد أن اسـتقرت العـجلات على أرض المطار جاءنـا صوت الكابتن ليبـشرنا بسلامة الوصـول وليشكرنا على استخـدام طائرات شركة العال، وليـحذرنا ـ بعد ذلك ـ من أن الجـو خارج الطائرة ممـطر عاصف ورعـدى، وأن درجة الحـرارة ١٨ درجة.

ياله من اسـتقـبال «حـار» جعل زمـيلى ينظر إلى ممتـعضـاً قبل أن يقـول: «أول القصيدة كفر» فقلت له «بل قل أول الغيث قطرة!».

قبل أن يفتح باب الطائرة، أخـرج كل راكب معطفاً ثقيلاً لف به جـسده، أما أنا وإبراهيم فلم يكن معنا مثل تلك المعاطف الثقـيلة، فقط كنا نملك استعداداً لخوض تحقيق آخـر على غرار الذى واجهناه فى القـاهرة، ولكن من المؤكد أنهم لن يكونوا كـرماء هنا فـى مطار بن جوريون بـتل أبيب مثلـما كـانوا فى مطار القـاهرة! ولم نستبعـد أن يجريه معنا فرقة كومـاندوز وليس فرقة بالية البولشـوى كما حدث فى بلدنا!.

لفحة هواء اصابتنى بمجرد أن واجهـت باب الخروج، بل صفعة باردة جداً على وجـهى يمينا ويسـاراً مما جـعلنى أخفـى «قفـاى» جيـداً. لم أنظر ناحـية من وجـه الصفعـة فقد أعمتنـى الرياح الصاخبة عن تبين أى شئ، الحـق أننى حاولت العودة مرة أخرى إلى الطائرة لعلها تعود بى إلى القاهرة، لكن دفعة خلفية «مستقيمة» من الحاج إبراهيم جعلتنى فى منتصف سلم الطائرة قبل أن أقفز داخل الاتوبيس المنتظر

أمامه، ولأول مرة يسألنى الحاج ابراهيم بعد أن تلقى ـ مثلى ـ الصفعات:

«لماذا جئنا إلى إسرائيل؟».

الآن فقط تسألنى؟!. فى اللحظة التى نسيت فيها كل شئ إلا أننا فى أرض أعدائنا التاريخيين. آسف.. ليس لدى إجابة.. على الأقل فى هذه اللحظة التى يجب أن نستعد فيها ـ فقط ـ للحظة التى تليها.

لم نجد «شوارزينجر» فى انتظارنا ليجرى معنا تحقيقاً «موساديا»، كانت صالة الوصول شبه خالية إلا من بضع فتيات يقفن أمام منافذ لاستبدال العملة.. بالشيكل الإسرائيلى. الحقائب وصلت إلى السير بسرعة رغم الجو العاصف، كل الركاب حملوا حقائبهم ورحلوا إلا نحن.. فمازالت حقيبتانا لم تصلا للسير بعد، حين داخلنا الشك سألنا أحد العمال فى المطار عن مصير الحقيبتين فقال لنا: لا تقلقا.. كل شئ تمام!.

ووصلت الحقيبتان أخيراً، ووجدنا أنفسنا وحدنا أمام ضابطة الجوازات، قلت لزميلى: يبدو أن نون النسوه هنا هى الأصل.

عشرة منافذ للجوازات كل منفذ تحتله ضابطة أجمل من زميلتها، كان أمامنا هذه المرة فرصة للاختيار.. فكلهن خاليات تماماً، غافلت الحاج ابراهيم وتوجهت إلى أجمل واحده فوجدته مصمماً على الوقوف خلفى، فنادت عليه احداهن: «تعالى هنا». فلم يجد مفراً من التوجه اليها.

أخذت منى الجواز.. ونقرت أمامها على «الكيبورد» الخاص بالكمبيوتر، ثم عادت وتفحصت الجواز، ثم رمقتنى بنظرة سريعة لتتأكد من أننى صاحب الصورة، ثم انهت الموقف «بخبطة» من خاتم الجوازات على احدى صفحات جوازى قبل أن تناولنى اياه دون أن تنطق بكلمة.

والآن فقط مسموح لنا بدخول أرض المعاد.

هل يمكن أن ينسى الملحق الاعلامى بسفارتنا ولا يرسل لنا من ينتظرنا؟.

سألت نفسى هذا السؤال وصوت كابتن الطائرة يتردد فى اذنى عن أحوال الطقس. لكننا وجدنا خواجه ذا بشرة حمراء يحمل ورقة مكتوب عليها إسمينا بالخط العربى العريض، سلم علينا الرجل بحياد تام قبل أن يخرج من جيب سترته تليفوناً محمولاً ويطلب رقما لم يلبث أن تحدث مع من رد عليه بالعبرية، ثم ناولنى السماعة لكى أتحدث مع الطرف الآخر الذى كان يتحدث بلهجة فلسطينية.

ـ آلو.. أنا موفق سائق التاكسى، اتفقوا معى فى السفارة على استقبالكما لكن سيارتى تعطلت فأرسلت لكما الخواجة «ياكوف».

ـ هل تقصد أن هذا الرجل الذى سيوصلنا إسرائيلى.

ـ نعم.. لاتخف أنه رجل طيب.

ـ ولكن ألا تعلم لماذ لم ترسل لنا السفارة احدى سياراتها مع أحد موظفيها؟.

ـ حقيقة لا أعلم غير أنهم كلفونى باستقبالكم وتوصيلكما إلى فندق «شالوم» على أن تعطيانى أنتما أجرة التاكسى. لكن الآن اعطوها للخواجة ياكوف.

ـ وكم تبلغ الاجرة من المطار إلى الفندق

ـ ٢٥ دولاراً.

ـ موفق.. هل انت متأكد من أن الخواجة ياكوف سيوصلنا إلى الفندق وليس إلى مكان آخر.

ـ لا تخف.. ثم لاحظ أنه يفهم كل كلمة قلتها لى الآن.. مع السلامة.

كان موقفـا مخزياً من سفارتنا.. أو بالأحرى من الملحق الاعـلامى الذى حادثته تليفونيا من القاهرة ليرتب كل شئ، وها هو يفى بوعده ويسلمنا إلى المجهول، ولم يكن أمامنا سوى خيار واحد وهو الاستسلام للخواجة ياكوف ليفعل بنا ما يشاء!.

لم أر فى حيـاتى أمـطاراً غـزيرة بهـذا الشكل الذى وجـدته خـارج مطار بن جوريون، مطر لا تجـدى معه المظلات حيث تتحول كل نقطة منه إلى إبرة تخـترق أى حاجز. بحثنا عن أى مكان خارج المطار نلوذ به حتى يحضر السائق سيارته من «البارك». بعـد لحظة اكتشفنـا أننا نقف بين رجال أمن إسرائيليـين.. بادرنا أحدهم بالسؤال بالعربى المكسر:

ـ مصريون؟.

ـ نعم.

ـ من أين؟.

ـ هل التحقيق هذه المرة خارج المطار.. شئ جميل!.

ـ ليس تحقـيقاً.. أنا مصـرى من باب الشعرية، ولدت هناك، واصدقـائى مازالوا هناك وأراسلهم، ولابد أنكم صحفيون.

ـ كيف عرفت؟.

ـ وهل يأتى من مصر فى هذه الظروف إلا الصحفيين.

ـ وهل تعرف السائق الذى معنا أيضا؟.

ـ ياكوف.. نعم انه شخص رائع وسيكون فى خدمتكما وسيوصلكما إلى فندق «شالوم».

ـ وتعرف اسم الفندق أيضاً؟!.

ـ ولكننى لا أعرف رقم الغرفة.. (ثم ضحك) لا تقلقا.. نحن نحب مصر وكل من يأتى منها.

هذه هى سيارة ياكوف. تاكسى أمريكانى فاخر آخر موديل، طبعاً ألسنا فى إسرائيل؟!.

هيا ضعوا حقائبكم فى حقيبة السيارة الخلفية، هكذا صاح علينا وهو يجلس إلى عجلة القيادة بعد أن فتح حقيبة سيارته الخلفية بضغطه على تابلوه سيارته.

وبينما نضع حقيبتينا أقترب رجل الأمن الإسرائيلى الذى كان يحادثنا وتحدث مع ياكوف بالعبرية، لكننى استطعت أن أستنتج أنه يوصيه بنا على اعتبار أننا وهو بلديات، فقد كان رد فعل ياكوف ـ ذو الملامح الاوربية ـ هو الابتسام والاشارة بسبابته إلى عينيه بما يعنى «حاضر.. من عينى».

وانطلق بنا ياكوف لايلوى على شئ، الأمطار الغزيرة لم تكبح جماح سيارته الامريكية التى برمجت ـ على ما يبدو ـ على أن تنهب الأرض نهباً، خفت أن أطلب منه تهدئة السرعة وقلت لنفسى: لماذ لا أتجاذب معه أطراف الحديث وتلقائيا سوف يخفف من سرعته حيث سينقسم تركيزه بين القيادة وبين الحديث.. هكذا خمنت، لكن خاب ظنى مع ياكوف، فلم تكن به أية رغبة فى الحديث كما لو كان يتبع تعليمات صارمة، فحين سألته عن المسافة بين المطار وتل أبيب فقال: ٢٥ كيلو مترا.. ولم يزد على ذلك. عدت لأساله مرة أخرى: هل أنت يهودى شرقى أم يهودى غربى؟ فقال لى بلهجة قاطعة: أنا إسرائيلى. لم يتسرب إلى اليأس، فقد تعلمت أن أول سائق تاكسى هو مفتاح المعرفة للبلد الغريب الذى تزوره لأول مرة. ولكن يبدو أن ياكوف «قفل» وليس مفتاحاً، فحين حاولت أن أقدم له سيجارة لم يشكرنى بل قال لى من فضلك لاتدخن فى سيارتى فالتدخين يؤذى

صدرى!.

أصر ياكوف على التزام الصمت طوال هذا الطريق المعتم الذى يربط بين بن جوريون وتل ابيب، كانت هناك اصلاحات فى الطريق جعلتهم يضيقون من عرضه. لكن الرجل أصر على الانطلاق بسرعة رهيبة وكأنه يقودنا إلى حتفنا.

على البعد بدت أنوار كثيرة قدرت أنها تل أبيب. فاضطررت ان أتأكد منه فاكتفى بهز رأسه.. «ياواد يا تقيل!».

إذن هذه هى تل ابيب التى كان الجيش المصرى سيدخلها عام ١٩٦٧ ويلقى بسكانها فى البحر المتوسط.

لماذا تذكرت الآن صوت ذلك المذيع «الحنجورى» وهو يصيح: أمجاد يا عرب أمجاد. نحن الآن على أبواب تل ابيب. اقتحموا يا رجال؟!.

لماذ تذكرت الآن وأنا فى هذه السيارة التى يقودها عدو لى سيارة توزيع الصحف التابعة لأخبار اليوم التى حملتنا من بورسعيد إلى دمياط قبل ساعات من اندلاع معارك رأس العش. كان اليهود يريدون غزو بورفؤاد لتكون سيناء ـ كلها ـ فى أيديهم. اقتحموا رأس العش بالدبابات. لكن قبل أن يحدث ذلك جمعنا الاستاذ فوزى الكتبى ناظر مدرسة النصر الإبتدائية ببورفؤاد وأجرى لنا امتحانا صورياً قبل امتحانات آخر العام بشهرين.. بعدها أعطانى الاستاذ محمود بركات شهادة تفيد بأننى نجحت فى الصف الخامس الابتدائى، سألته لماذا هذه الشهادة مبكراً، فربت على كتفى وقال لى: غداً سنترك بورفؤاد ونهاجر لأن حرب الاستنزاف بدأت ولن نتركهم يهنأون بما حققوه، وعندما لاحظ دهشتى مما يقول، تدارك بسرعة وقال: غدا ـ وربما اليوم ـ ستسافر مع أبيك وأمك وأخوتك إلى بلد آخر وستنضم إلى مدرسة أخرى ستحصل منها على الإبتدائية.

ومثلما حدث فى هجرة ٦٧ حدث فى هجرة الاستنزاف، لكن هذه المرة لم نذهب إلى بحيرة المنزلة، فقد صممت أمى على أن نهاجر إلى دمياط حيث أقاربها هناك بدلاً من التشرد فى بلاد لا نعرف فيها أحداً.

لكن أين هو السائق المجنون الذى يقطع طريق دمياط المطل على البحر المتوسط؟.

لم يكن هناك غير سائق أخبار اليوم الذى جاء مبكراً ليفرغ نصف حمولته فى بورسعيد والنصف الآخر فى دمياط خاصة بعد أن ضربت إسرائيل خط السكك الحديدية، فأصبح قطار الصحافة ممنوعاً من دخول بورسعيد.

ووجدت نفسى مع أبناء الجيران نجلس فوق الجرائد، ولم نكن فى حال تسمح لنا بقراءة تفاصيل المانشيت الاحمر «المعركة مستمرة» ..فقد كان وجودنا أهم من التفاصيل! فوق الجرائد فى حد ذاته

السيارة تسير بسرعة مجنونة، السائق يحاول أن يهرب بها من أقدارنا! والقنابل تتساقط على مبعدة ومقربة منا. وكادت تنقلب بنا السيارة مع ارتطام «دانه» ١٠٠٠ رطل على بعد عشرة أمتار منا جعلت الحاج فتحى جارنا يصيح لوالدى يقول: «اكسر بصلة يا جمعة». لم أعرف معنى هذا التعبير ـ اكسر بصلة ـ إلا بعد سنوات، لكننى أذكر أن أبى لم يفعل بل رفع سبابته إلى السماء مردداً الشهادتين ثم أحتضننى أنا وأخى وأختى بين ذراعيه.

وحتى تكتمل المأساة توقفت السيارة فجأة وهبط أبى والحاج فتحى ليستكشفا ما حدث. لاتخافوا لقد أصيبت أحدى العجلات «بشظية» وسنغيرها فى الحال. حاول السائق أن يطمئنا قبل أن يبدأ مع الرجال فى استبدال العجلة، ومع كل صوت طائرة يقترب كنا نقول: هذه هى النهاية، ومرت الدقائق كدهر، ونحن نلوذ

ببعضنا البعض حتى صعد أبى وجارنا وهما يرددان: الحمد لله.. الحمد لله.

وبدأت الرحلة من جديد، لكن بسرعة أبطأ فسرها أبى بأن السائق لايملك «عجلة إستبن» أخرى، والأفضل أن يُبطئ. وكان هذا يعنى أن نموت ببطء، ولم نصدق أننا سنصل إلى دمياط ونحن نستبقل هذه السلحفاة.

***

وأخيراً وصلنا إلى فندق «شالوم» بتل أبيب، إنه يطل ـ أيضا ـ على البحر المتوسط الذى ارتبطت حياتى به، تحدث ياكوف وقال لى: هذا هو رقم تليفونى المحمول.. إذا أردت تاكسياً اتصل وسأحضر لك على الفور.

شكراً يا حبيبى.. خد فلوسك وألف سلامه. قالها ابراهيم مسلم بالعربى مترجماً رد فعلى الذى لم أقله للسائق اليهودى.

الامتار الخمسة التى تفصل بين التاكسى وباب الفندق كانت كفيلة باغراقنا بالمياه، وحين وجدنا أنفسنا بالداخل سمعنا صوتاً مصرياً يقول لنا حمداً لله على السلامة، كان الملحق الاعلامى الذى حادثته من القاهرة وأحمد الله أننى نسيت اسمه الآن ولم أحاول أن أتذكره، لقد كان ذلك الرجل عاملاً معوقاً بدلاً من أن يكون عاملاً مساعداً لنا فى مهمتنا الصحفية.

الشئ الوحيد الذى فعله لنا هو حجز غرفتين فى هذا الفندق، وحين صعدت إلى غرفتى قلت له سأبدأ العمل من الآن لأننى مطالب بإرسال رسالة صحفية إلى أخبار اليوم غداً. من فضلك جهز لى موعداً مع السفير فى أسرع وقت.

وانصرف الرجل وتركنى أتابع الموقف من التليفزيون الاسرائيلى تارة، ومن الراديو الإسرائيلى تارة أخرى، كانت طبول الحرب تدق فى الإعلام الإسرائيلى

بعد العملية الانتحارية التى قام بها شاب ينتمى إلى حركة حماس مُفجرا نفسه فى اتوبيس بشارع «ديزبخوف» بتل أبيب، أنها العملية الثالثة على التوالى بعد عمليتى القدس وعسقلان.. أو اشكيلون كما يطلق عليها الإسرائيليون.

لاشئ هنا غير نشرات الأخبار وكلها تنقل ردود أفعال الشارع الإسرائيلى والمسئولين الإسرائيلين والمعارضة الإسرائيلية على العمليات الانتحارية التى راح ضحيتها الأبرياء من النساء والأطفال، ونقلت الصور التليفزيونية الهلع والرعب المرسومين على وجه المواطن الإسرائيلى.

ولأن «الميديا» الإسرائيلية عبقرية، خاصة فى إظهار المجتمع الإسرائيلى بأنه مجنى عليه مهيض الجناح أمام عمليات حماس الانتحارية، فقد تحول العالم كله إلى صف إسرائيل ضد الفلسطينيين ـ كل الفلسطينيين ـ الذين كفروا بنعمة السلام وعادوا لتكدير صفو المواطن الإسرائيلى.

لكن هذه «الميديا» العبقرية كانت ـ كما بدا لى ـ اشبه بالقارب الذى تجذبه أياد مختلفة إلى جهات متباينة، وصدق من قال إذا اجتمع يهوديا فسيتمخض الاجتماع عن ثلاث وجهات نظر مختلفة! فكيف يكون الحال والاجتماع اليهودى يضم المئات؟!.

كل الخطوات التى أعددتها فى رأسى تداخلت وأنا أتابع الموقف من الراديو والتليفزيون ونحن فى الثانية عشرة بعد منتصف الليل.

كل أوراقى تبعثرت ولابد من إعادة ترتيبها قبل أن تشرق الشمس وأهبط من فندقى إلى الشارع، ثم إلى السفارة، ثم إلى الشارع الإسرائيلى، ثم إلى الشارع الفلسطينى.

لقد تغيرت أشياء جوهرية عقب اغتيال رابين على يد مهووس يمينى إسرائيلى

اسمه ايجال عامير، وها هو خلفه ـ الأقل حنكه ـ بيريز يواجه امتحاناً عسيراً للسلام ـ ربما يطيح به إلى مقاعد المعارضة بعد أن علا صوت بنيامين نتانياهو زعيم الليكود «الطائش».

كل ما فعله بيريز ـ لحظة وصولى إلى تل ابيب ـ هو فرض طوق أمنى رهيب على مناطق الحكم الذاتى الفلسطينية، ممنوع الدخول، وممنوع الخروج. سجن كبير يوشك أن يتحول إلى مجاعة مع عدم دخول مواد غذائية من منفذ رفح، فضلاً عن المنافذ المطلة على إسرائيل.

لكن الشارع الإسرائيلى استقبل خبر الإعلان عن انعقاد قمة لمحاربة الارهاب بشرم الشيخ بفرحة طاغية، وفجأة اختفى صوت طبول الحرب، وحل محله صوت الحكمة، وتزايد الأمل فى فك الطوق الامنى قليلاً خاصة عقب الإعلان عن قيام الشرطة الفلسطينية بالقبض على ٥٠٠ من أعضاء حركة حماس، وسبعة آخرين من أصل ثلاث عشرة حددتهم إسرائيل بالإسم، ومع تأكيدات شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلى بأن الطوق الأمنى على الضفة الغربية سيظل قائما حتى يتم تعديل الميثاق الفلسطينى وتنقيته من المادة الداعية لتدمير إسرائيل، بدأ الاقتصاد الإسرائيلى يتصدع نتيجة غياب العمالة الفلسطينية التى كان يعتمد عليها.. ونتيجة ـ أيضا ـ لانخفاض عدد السائحين.

وبدا لى ـ أيضا ـ قبل أن أهبط بنفسى إلى الشارع أن إرهاب حماس جعل بيريز وعرفات ـ لأول مرة ـ فى قارب واحد يبغى الوصول إلى شاطئ السلام، بينما تتقاذفه أمواج قادمة من عدة اتجاهات.. أخطرها المعارضة الإسرائيلية التى تبحث عن الفوز فى انتخابات مايو المقبل، وهذا لن يتحقق إلا على جثة بيريز، فالمعارضة تلعب على أن المواطن الإسرائيلى يهتم بأمنه الشخصى فى المقام الأول.. فلا معنى

لسلام لا يحقق هذا الهدف.

وعلى طريقه عتاب الشركاء يعتب بيريز على عرفات بأنه لم يحلل الوضع بصورة صحيحة فيما يتعلق بحماس، لكن عرفات لم يرد على العتاب، لأن شريكه كان مشغولاً بالرد على اتهام الشارع الإسرائيلى له بأنه باع لهم «ترومای السلام» فلم يحصدوا إلا الذعر، إذن المواطن الإسرائيلى ينظر إلى السلام نظرة مختلفة تماماً عن نظرتى ونظرتك، وربما نظرة العالم كله. وهذا أول انطباع خرجت به وأنا جالس فى غرفتى.

وتأكيد على تداخل الاصوات الإسرائيلية حتى داخل الأسرة الواحدة، ومع ارتفاع صوت الحكمة الذى ينادى بالتعاون مع السلطة الفلسطينية فى تعقب أعضاء حركة حماس بدلاً من أظهارها بموقف المتخاذل، أثار تصريح رعنان كوهين عضو الكنيست ورئيس التكتل الحكومى حفيظة عرب إسرائيل ووزراء حكومة بيريز على حد سواء. قال كوهين: على العرب أن يقفوا مع أنفسهم بعد ثبوت أن الذى نقل المخرب ـ يقصد الشاب الإنتحارى ـ إلى تل أبيب ليقوم بعملية شارع «ديزبخوف »كان عربياً.

وكان عيزرا فايتسمان الرئيس الإسرائيلى هو أول الرافضين لهذا الاتهام حيث رد بقوله: إننا لايجب أن نكيل التهم ونضع الجميع فى صف الاعداء، ويكفى أن من بين ضحايا حوادث الإرهاب ضابطين وجندى من العرب الذين ينتمون إلى البدو والدروز ويخدمون فى جيش الدفاع الإسرائيلى.

وبينما كان بيريز مشغولاً باستقبال وزيرى خارجية فرنسا وألمانيا كان وزيراه يوسى شاريد وزير البيئة وحاييم رامون وزير الداخلية يؤكد ان على نفس المعنى الذى ساقه فايتسمان، بل أن شاريد زايد على رئيس دولته بقوله أن العرب

مواطنون مثلنا تماماً وشركاء لنا فى دولة إسرائيل التى تضم اليهود والمسلمين!.

ولأن هذا الكلام ـ كله ـ عبارة عن دق «إسفين» بين عرب إسرائيل الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية وبين الفلسطينيين المرابطين فى مناطق الحكم الذاتى، عاد أصحاب هذا الكلام الوردى واختلفوا حين اتجه الحديث إلى دور السلطة الوطنية الفلسطينية الوقائى ضد العناصر الناشطة من حركة حماس. فبينما يرى ساريد أن السلطة الفلسطينية تقوم بواجبها على خير وجه، يرى إيهود باراك وزير الخارجية وإفرايم شوحط وزير المالية أنها مقصرة ولا تقوم بدورها كما ينبغى.

وهكذا قدر على أن أتعامل مع أراء متصارعة فيما بينها.. متصارعة مع الجبهات المنافسة، لكنها تتفق فى النهاية على شئ واحد: الهاجس الأمنى، هذا الهاجس الذى لن يطرأ عليه أى تغيير منذ قيام دولتهم عام وحتى قيام الساعة، فإذا كانت مهمتى الصحفية هى البحث عن مستقبل السلام فى المنطقة فيجب أن أبحث أولاً عن هذا الوهم.. أو هذه «الفوبيا» المسماة بالأمن. كيف يمكن أن تتحقق مع عدم أخذ حقوق الآخرين فى الاعتبار.

والآن يجب أن أنام جيداً قبل أن أقابل سفير مصر فى إسرائيل.

الفصل الخامس

عسقلان .. وليس أشكيلون

ما تحقق من انجازات السلام كان مجرد خطوة أولى قضى عليها، وبالتالى قضى على آمال الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره خلال المرحلة الثانية من اتفاق السلام

لم تكن عبارة «صباح الخير» التى نقولها فى مصر حين نستيقظ هى الكلمة المناسبة هنا للتعليق صباح تل ابيب؛ الذى لايعرف الشمس ولايعترف بالدفء، حتى كلمة «بيكرتوف» التى ايقظنى بها موظف الفندق فى السادسة صباحاً بما يعنى صباح الخير؛ لم تثر فى إلا ذكريات مسلسل رأفت الهجان حينما كانت تقولها استر بلينسكى: بيكرتوف أدون سمحون. ويبدو أن موظف الفندق أدرك أن الكلمة لا تحتاج إلى رد فسارع باغلاق السماعة فور التأكد من استيقاظى.

مازالت زخات المطر تواصل رسائلها فى محاولة يائسة لاطفاء النار التى تأججت بها صدور كل من يعيش فوق هذه الارض: غاصباً أو محتلاً أو مضطراً أو زائراً أو متصوراً أنها أرض المعاد.

انه ليس الجو المناسب لمقابلة الناس والحديث معهم. أمطار كهذه فى مصر لابد أن تحدد إقامة الجميع فى منازلهم، لكن هنا يلهث الناس وراء الأحداث المتسارعة مع نشرات الأخبار.

وحين هبطت إلى بهو الفندق كان فى انتظارى شخصان.. الأول محمد عبد الغفار - الموظف بالسفارة الذى تبرع لتوصيلنا إلى السفارة بسيارته، والثانى هو الخواجة ديفيد صاحب الفندق الذى قال لى - بالعربى المكسر - «نورت تل ابيب يا حبيبى». ثم أردف قائلا: أنا مصرى.. اسكندرانى، وأذهب كل عام إلى مصر حبيبتى.. وكل المصريين الذى يأتون إلى إسرائيل يأتون هنا فى فندقى، انت ليه حجزت غرفة «دبل» وحدك؟ فيه غرف «سنجل» أرخص كثير؟.

وطبعاً لم أقل له أن الذى تولى الحجز هو الشخص الذى نسيت اسمه والذى يفترض فيه معاونتنا، لكن ديفيد نفسه لم ينتظر الاجابة وأمر بتحويل حقائبى إلى غرفة أخرى بسرير واحد وبسعر أقل ٢٠ دولارا فى الليلة الواحدة!.

نظرت إلى محمد عبد الغفار أشكو له ما فعله بنا رئيسه، فنظر واجماً إلى الأرض فى محاولة صامتة للاعتذار عن ذنب لم يرتكبه.

الآن استطيع أن أتعرف على تل أبيب من وراء نافذة السيارة. ورغم ضبابية الزجاج لاحظت أن مبانى تل ابيب تحمل طابعاً واحداً يشبه القشلاقات العسكرية، وأن اللون الابيض المائل إلى الرمادى هو لون المبانى جميعها.

كل البيوت عبارة عن ثلاثة أدوار ليس أكثر، وبالتالى كل الشوارع متشابهة تماماً، سألت محمد عبد الغفار عن المدة التى يقضيها الفرد حتى يحفظ الفرق بين مكان بيته ومكان عمله فضحك كثيراً وقال: أنظر.. هذا برج سكنى مزود بأسانسير مثل الأبراج الحديثة التى ظهرت فى القاهرة.

لم أسترح إلا حين عرفت لماذا يسكن الإسرائيليون فى هذه القشلاقات سابقة التجهيز، وكما توقعت كان السبب هو نظرية الأمن الإسرائيلية، فهذه المساكن الواطئة التى لاتعرف الشرفات مساكن جاهزة تكلفتها أقل من المساكن الخرسانية، فإذا حدث ودخل العرب تل أبيب مثلما كان يقول المذيع إياه لما خسروا الكثير بتركهم لهذه المساكن! أما حكاية الأبراج السكنية التى بدأت تظهر فى تل أبيب فقد عرفها اليهود بعد توقيع معاهدة السلام مع السادات وبدأوا يأمنون ـ قليلا ـ على حياتهم ويرتفعون بقامات مساكنهم!. ها هو علم مصر يرفرف ـ رغم البلل ـ فوق سطح إحدى البنايات «التل أبيبية»، لايميزه عن المبنى المجاور سوى كشك الحراسة واليافطة المكتوب عليها سفارة جمهورية مصر العربية.

رجال الحراسة فى الكشك من الشرطة الإسرائيلية لم يسألوننا «رايحين فين»، ملامحنا تقول أننا مصريون ومتوجهيه إلى سفارتنا. وعندما طرقنا باب السفارة فتح لنا موظف أمن مصرى. ولأنه لايعرفنا حيث كنا قد تركنا محمد عبد الغفار

ليبحث عن مكان يركن فيه سيارته. سألنا بطريقة أفراد الأمن المتشككة: «رايحين فين.. وعايزين مين».

يا أخى قل الحمد لله على السلامة، اليهود الحراس عندهم تمييز عنك، أكيد احنا مصريين وداخلين سفارتنا، مش مهم لمين.. أى شخص مصرى والسلام.. لذلك كان يجب أن تستقبلنا بطريقة أفضل.

قلتها له، وحاولت أن أكمل لإفراغ شحنة الغيظ التى شحننى بها استقبالة الردئ، ثم تراجعت وقلت لنفسى: إذا كان السفير لم يأمر بإرسال سيارة السفارة لاستقبالنا فى المطار، وإذا كان المستشار الاعلامى لم يكلف نفسه بالذهاب إلى المطار. فضلاً عن توريطنا فى غرفة سعرها فى الليلة ٨٠ دولار، فماذا أنتظر من موظف أمن عمله أن يقول للناس: «أنت رايح فين.. وبس».

ولم يسمح لنا رجل الأمن بالدخول إلا عندما لحق بنا محمد عبد الغفار وقال له: «دول معايا».

ما هذا؟ هل عدوى هاجس الأمن انتقلت إلى سفارتنا بحكم المكان؟ إلى هذه الدرجة يصبح هذا الهاجس أعمى غير قادر على التمييز بين وجوه المصريين ووجوه أفراد حركة حماس الانتحارية!.

من سوء الحظ أننا يجب أن نقابل السفير عن طريق ذلك المستشار الاعلامى. كنت أتمنى وجود الاستاذ لطفى عليوه الذى سمعنا عنه كثيراً فى مصر وعن التسهيلات التى يقدمها للصحفيين لدماثته وثقافتة وعشقه لعمله. لكنه ـ من سوء حظنا ـ كان فى إجازة بالقاهرة تنتهى يوم مغادرتنا لإسرائيل.

وأنا جالس فى انتظار وصول السفير لاحظت شيئا فى سفارتنا.. وسمعت أشياء من راديو إسرائيل؟!.

لاحظت أن عمل الملحق الاعلامى يقتصر على ترجمة الصحف العبرية وإرسالها إلى هيئة الاستعلامات دون أن يقول رأيه أو يحلل ما يقرأه ويراه. إذن المؤهلات المطلوبة لشخص يقوم بهذا العمل هى إجادة اللغة العبرية فقط.

وهذا يعنى أن هذا الرجل لم يقصر معنا. فاستقبالنا وتهيئة الظروف لنا ليس من وظائفه وما كان يقوم به زميلة لطفى عليوه للصحفيين الذين سبقونى إلى إسرائيل كان فضلاً وتفضلاً منه! . هذا - بالطبع - مع عدم وضع واجب المصرى على المصرى فى الاعتبار، فهناك أناس غير مدربين على عمل الواجب الذى يقتضيه العرف ولا تنص عليه اللوائح.

أما ما سمعته من راديو إسرائيل فهو أن المعارضة الإسرائيلية حققت نصراً مبدئياً على حزب العمل فى الكنيست الذى وافق اعضاؤه على مشروع قانون يقضى بإغلاق بيت الشرق بالقدس، القرار جاء بناء على اقتراح تقدم به نائب عن الليكود وحصل على أغلبية ٤٩ ضد ٣٦ فى التصويت، ولم يكن هذا هو النصر الوحيد، فقد سبقه نصر آخر عندما اعترف محمد أبووردة المتهم بتجنيد عناصر انتحارية لحماس بأن الغرض من تلك العمليات هو ضرب حكومة حزب العمل وتهيئه الظروف لعودة تكتل الليكود للحكم.

الاكثر من ذلك أن نتانياهو وبينى بيجين - ابن مناحم بيجين - وصفا شيمون بيريز بألفاظ غير مهذبة تراوحت بين السفالة والوضاعة، ووصلت إلى أنه ثرثار لايفعل شيئا غير المسكنة. إنه ضرب تحت الحزام يؤكد أن بيريز بدأ طريق الهبوط من القمة إلى السفح بإيقاع كرة الجليد.

ولأننى أعرف أن سفيرنا محمد بسيونى صديق بيريز بحكم وجوده ١٥ عاماً فى السفارة المصرية بتل ابيب وددت لو أعرف كيف ينظر إلى مستقبل كرة الثلج

الهابطة التى تحمل اسم بيريز.

العلم المصرى وصورة الرئيس مبارك فى مكتبه انسيانى الاستقبال الحيادى الذى استقبلنا به، كنت أتصور أن سفير مصر فى إسرائيل لابد أن يستقبل الصحفيين المصريين استقبالا اكثر حميمية وأقل رسمية لكن ما علينا.

قلت له: يبدو أن أصدقاءك فى حزب العمل فى موقف لا يحسدون عليه.

فقال: حزب العمل كان يتمتع بثقة الرأى العام الإسرائيلى قبل العمليات الانتحارية الأخيرة فى القدس وأشكيلون - يقصد عسقلان - وتل ابيب. وكان الفاصل بين بيريز وبين نتانياهو زعيم الليكود كبيراً جداً حيث كان اهتمام الشارع الإسرائيلى بالسلام كبيراً، وحققت حكومة بيريز انجازات كبيرة فى مجالات السلام والتعليم والبطالة والنمو الاقتصادى كل هذا تغير الآن وبالتحديد بعد يوم ٢٥ فبراير الذى شهد بداية العمليات الانتحارية التى جعلت الشارع الإسرائيلى فى حالة غضب شديدة جداً، فالمعروف أن اهتمامات الشارع الاسرائيلى بموضوع الأمن الشخصى هو اهتمام أساسى، فإذا شعرت الأم الإسرائيلية أن أولادها مهددون فهذا يعنى ضوءا أحمر ضد الحكومة.

مازال محمد بسيونى يستعرض الموقف فى إسرائيل: عندما جاءت حكومة رابين وعدت بتحقيق السلام وصولا إلى الأمن الشخصى للمواطن الإسرائيلى، وعلى هذا الاساس باركها الشعب الإسرائيلى وهى توقع الاتفاقيات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتم إقرار الحكم الذاتى للفلسطينيين، فردوا على ذلك بالانفجارات والعمليات الانتحارية مما حمل المواطن الإسرائيلى على الاعتقاد بأن الحكومة أخلفت وعدها، خاصة وأن عدد الحوادث الانتحارية التى وقعت عقب التوقيع على اتفاق اوسلو بلغ ٢٢ حادثاً تسببت فى خسائر كثيرة لإسرائيل، إذن لم

يأت السلام بالأمن للمواطن الإسرائيلى.

قلت للسفير بسيونى: هذا يؤكد ملاحظتى بأن حكومة حزب العمل فى طريقها إلى الغروب.

فرد على بقوله: للأسف الشعب لايصوت لصالح انجازات حكومة ولكن يصوت اعتراضاً على شئ ما اقترفته تلك الحكومة. وعلى هذا الاساس أقول أن ما تحقق من إنجازات السلام كان مجرد خطوة أولى قضى عليها، وبالتالى قضى على آمال الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره خلال المرحلة الثانية من اتفاق السلام. فكما تعلم هناك مرحلة أولى ومحصلة نهائية تبدأ يوم ٤ مايو المقبل.

وما حدث الآن هو تراجع لأسهم معسكر السلام وارتفاع لأسهم معسكر اليمين، وأستطيع أن أقول أن استمرارية تطبيق ما تم الاتفاق عليه مهدد بالخطر، المفروض أن إسرائيل كانت ستعيد الانتشار فى الخليل بنهاية مارس بعد أن أعادته فى ست مدن، وأظن أن اعادة الانتشار فى الخليل لن تتم بل سيتم تأجيل مباحثات السلام.

قلت لسفيرنا لدى إسرائيل: الاجراءات التى لجأت اليها إسرائيل كرد فعل اتسمت بالغضب والاندفاع أكثر من الحكمة.

فقال: الخطوات التى اتخذتها إسرائيل كانت لتحقيق الأمن الشخصى للمواطن الإسرائيلى، لقد فرضوا طوقا أمنيا على كل الضفة الغربية وقطاع غزة، وطبقوا خطة الفصل (٢ كيلو على طول الخط الأخضر من جنين شمالاً وحتى الخليل جنوباً). كما أغلقوا بعض المؤسسات التعليمية التابعة لحركة حماس، والتى كانت تستخدم لعمليات التحريض. وقاموا بعملية تمشيط واسعة للقضاء على البنية التحتية لحماس فى المنطقة (ب) وهى المنطقة القروية خارج حدود المدن الست التى

اعيد الانتشار بها وهى جنين ونابلس وطولكرم وقلقيليه ورام الله وبيت لحم. هذه المدن المسئولية الأمنية والإدارية فيها تعود للسلطة الفلسطينية، أما المنطقة (ب) فالمسئولية الادارية فيها للسلطة الفلسطينية، بينما المسئولية الامنية لإسرائيل.

ـ سيادة السفير.. أنا أشك فى أن الحكم الذاتى سيستمر مستقبلاً؟.

ـ قال محمد بسيونى: لاتستطيع أى حكومة أن تتراجع عما تم الاتفاق عليه، هناك التزامات دولية لايمكن الفكاك منها، لقد كان هناك كلينتون ومبارك وحسين شهداء على ما تم الاتفاق عليه، المشكلة ليست فى ذلك الآن، المشكلة الحقيقية: ماذا لو فاز الليكود؟.

من ناحيتنا لاشأن لنا بالشئون الداخلية لإسرائيل. فليختر الشعب الإسرائيلى أى حكومة يريدها، ولكن لو جاء الليكود ستتعقد الأمور فى المناطق الباقية وفى الجولان، وهذا ما كان يسعى اليه المخربون. كانوا يريدون تدمير المسيرة السلمية، ومعسكر السلام الحاكم فى إسرائيل، والسلطة الفلسطينية، وهذا ما حدث تماماً. وفى تقديرى أن هناك عناصر دولية تتدخل فى الموضوع لتمويل الانتحاريين.

تصورت للحظة أن بيريز موقفه أسوأ من موقف عرفات، لكن السفير بسيونى يرى أن كليهما فى نفس القارب، ففى رأى السفير أن بيريز هو الأب الروحى لاتفاق أوسلو.. الخطوة الأولى لتحقيق آمال الشعب الفلسطينى التى يحلم بها الرئيس عرفات.

ويقول السفير بسيونى: الإرهاب الذى عصف بقارب السلام ليس اسلامياً بدليل أن الارهابيين لم يفرقوا بين مسلم ومسيحى ويهودى، وأتمنى ألا تتوقف المسيرة السلمية لحين القضاء على الارهاب فالأفضل للسلام أن يسير على خط مواز لخط القضاء على الأرهاب.

إذن أصبحت العلمية السلمية مرهونة بالقضاء على حماس. ولكن بيد من ؟ هذا ما سألته للسفير بسيونى فقال: السلطة الفلسطينية المنتخبة من الشعب الفلسطنيني وليس أحدا غيرها. لقد انتخب عرفات ٩٣٪ من الشعب الفلسطينى. وحماس تريد أن تكون سلطة أخرى موازية تفرض سطوتها بالارهاب. انها مأساة لبنان تتكرر من جديد. لماذا تفرض الاقلية رأيها؟. لو كانت لديك القوة لماذا لم تخض الانتخابات؟. الأوراق تقول أن ٨٠٪ من الشعب الفلسطينى حضر إلى الانتخابات. فأين تكمن قوتك أنت يا حماس؟ إن الشعب الفلسطينى اختار السلطة الفلسطينية لأنه يريد أن يعيش ويبنى كيانه الاقتصادى، إسرائيل بدورها التزمت بما وقعت عليه وانسحبت من المدن. فماذا يريد أعضاء حركة حماس إلا إجهاض أحلام الشعب الفلسطينى؟!.

ـ سيادة السفير.. أسمع الآن دقات طبول الحرب أكثر مما أسمع هديل حمام السلام، أتحدث إليك عن الشارع الإسرائيلى الذى تعرفه جيداً.

ـ صدقت فهناك انفعال وفورة غضب وهذا رد فعل طبيعى لأناس عددهم قليل ويتساقط منهم فى كل عملية انتحارية ٢٠ قتيلاً ومائه جريح، طبيعى أن يكفروا بعد ذلك بالسلام، لكنه ـ فى رأيى ـ كفر مؤقت سيختفى عندما يشعر المواطن الإسرائيلى أن السلام سيأتى له بما يريد وهو أمنه الشخصى، ودليلى على ذلك أنك لو كنت قد سألت قبل يوم واحد من توقيع اتفاقية اوسلو أى شخص فى إسرائيل هل يمكن أن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، من المؤكد أن ٩٠٪ سيقولون لك لا، ولكن عندما رأوا الاتفاقية وأن المنظمة تعهدت بتحقيق الأمن وافقوا، إذن الأمن هو الفيصل. وأعتقد أن الانتحاريين أضروا بالشعب الفلسطينى بأكثر مما أضروا بالشعب الإسرائيلى.

هذا كـان كل مـالدى سـفـيـرنا فى تل أبيب، ذلك الرجل الذى يـحظى بحب وشهره بين الإسرائيليين تدعو للدهشة، فالمسـألة أكثر من أنه أول سفير مصرى فى إسـرائيل، وأعمق من انه يعيش بينهم ويتكلم لغـتهم لمدة ١٥ عاماً. المسألة فـهمت بعضها حين علمت أنه فضل أن يدعو بعض الشـخصيات الإسرائيلية على العشاء ولـم يفكر ـ حـتى ـ فى سؤالنا عن المكان الذى نقـيم فيه فى إسـرائيل، حتى قـائمة الأسماء بالشخصيات الإسرائيليـة التى طلبت مساعدته فى تدبير لقاء لى معهم لـم يلتفت اليها رغم أن أحدهم كان من بين المدعوين على العشاء لديه! . كل ما فعله هو أن أشـار على بأن أكتب القـائمـة واسلمهـا للأخ ـ الذى نسـيت اسمـه ـ وهو سيتولى تدبير المواعيد.

ولحظتـهـا عرفت أننى لـن أحظى بأى ميـعـاد.. ولن أجلس مع أى شـخـصيـة إسرائيلية. الموعد الوحيد الذى رتبـه لنا الأخ ـ إياه ـ كان مع الجنرال «ابراشا تامير» أحد أعضاء الوفد الإسرائيلى فى توقيع معاهدة السلام مع مصر، لكن لكى تكتمل «المنظومة» أخبرنا ـ صديقنا المصرى ـ أن الموعد فى الفندق الساعة الخامسة. وأخبر الجنرال بأن الموعـد فى الساعـة الرابعة. وجـاء الرجل فى موعـده وانتظرنا لمدة ٤٥ دقيـقة ثم مضى غـاضباً، وهذا مـا جعل موظف الاسـتقبال الإسـرائيلى فى الفندق يكاد يوبخنى وهو يقول كـيف تجعل جنرالاً بقيمة الجنرال تامـير ينتظرك هكذا ولا تحضر اليه؟.

لـم أستطع أن أجـيب على موظف الاستـقبال لانه كـان لايريد إلا توبيخى ليس أكثر. وبطريقة ما حصلت على رقم تليفون الجنرال تامير فى منزله ورد على الرجل واعـتـذرت له بأننى كنت فى الـقدس ووصـلت تل ابيب فى الموعـد الذى حـدده الزميل الذى رتـب اللقاء، فقـال لى الجنرال: أنا أصدقك.. اتصـالك بى دليل على

صدقك. وعرضت على الرجل أن نلتقى ونصحح الخطأ فعرفت منه أنه مدعو اليوم على العشاء فى أحد الفنادق وأن السفير محمد بسيونى هو صاحب الدعوة. ثم استطرد متسائلا: ألم يوجه اليك الدعوة؟.

وصمتت لحظة قطعها هو بقوله: على فكرة جريدة أخبار اليوم أهم صحيفة فى منطقة الشرق الأوسط وقد كانت من أوائل الصحف المصرية التى عبأت الرأى العام لديكم لعملية السلام التى قادها الرئيس الراحل العظيم أنور السادات ورئيس الوزراء الراحل مناحم بيجين وأتمنى حقيقة أن ألتقى بك وبقراء أخبار اليوم وليس هناك مشكلة لدى فى تحديد موعد آخر معك.

المشكلة لدى أنا يا جنرال، قلتها لنفسى بعد أن وضعت السماعة، وقررت أن أوجه كل اهتمامى إلى الضفة والقطاع والقدس وأى مكان بعيد عن السفارة المصرية، ولكن كان على أن أسأل فى السفارة كيف اخترق الطوق الأمنى الإسرائيلى؟ فقالوا لى: ليس هناك مشكلة.. جواز سفرك سيساعدك على المرور.

لكنهم كذبوا على.. وكان على دفع الثمن غالياً؟!.

الفصل السادس

الطريق إلى أريز

نحن عرب ٤٨.. الذين وضعنا ألسنتنا داخل أفواهنا، ومشينا جنب الحيط لا نملك القدرة على الفعل، وإسرائيل تعرف ذلك جيداً، وإلا لماذا منحتنا جوازات سفر إسرائيلية؟!

من قال أن المدن جماد لا روح فيها؟.

من المؤكد أنه لم يزر تل أبيب، ولم يسمع عن بورسعيد، ولم يمر على الاسكندرية!.

نعم هذه المدينة التى تطل على البحر المتوسط ثقيلة الظل، ضيقة الصدر، ليس لها نصيب من حميمية بورسعيد وسحر الإسكندرية.

كنت أظن أن الأمطار هى التى حالت دون تعارفنا.. أنا وتل أبيب. وها هى الأمطار تتوقف، وها هى الشمس تبزغ، وتل أبيب.. هى تل أبيب، بينى وبينها «براح». تماماً مثلما بين سكانها وبعضهم البعض، تخالهم جزراً منعزلة كل منها مكتفية ذاتياً. كان ظنى أن هاجس الأمن سيجعلهم يلوذون ببعضهم، لكن ظنى تبخر وأنا أنظر حولى أتامل تلك الوجوه العابسة التى لاتفتر عن ابتسامة واحدة. انهم اليهود الذين جلست بينهم فى صالة المطعم بالفندق والموظفين الذى تعاملت معهم بنفس الفندق والمهرولون فى شوارع تل أبيب التى لابد أن أتركها فى الحال.

حسب خطة العمل التى أسير عليها، ووفقاً لمقتضى الحال فى مناطق الحكم الذاتى، كان على أن أكون فى غزة يوم الجمعة كى أمكث فيها ثلاثة أيام قبل أن أتوجه إلى القدس.

ولأن التنقل بالتاكسيات هو الوسيلة المتاحة؛ خطر ببالى أن اتصل بالسائق «موفق» الذى كان من المفروض أن يستقبلنا فى المطار وتعطلت سيارته، أريد أن أتحدث مع شخص من عرب إسرائيل قبل أن أتحدث مع الفلسطينيين فى غزة.

كنت احتفظ برقم تليفونه المحمول فطلبته، وعندما رد على أكد أنه سيكون أمام الفندق فى العاشرة والنصف، وقبل أن يصل موفق كنت قد انتهيت من ارسال أول رسالة صحفية من جهاز فاكس بالفندق إلى «أخبار اليوم».. وكانت تحمل عنوان

«شرم الشيخ.. طوق النجاة» لقد تم الاتفاق على عقد مؤتمر لمكافحة الارهاب أو لحماية السلام أو لصناع السلام. لايهم العنوان طالما أن الهدف كان «تطييب خاطر» إسرائيل ليس أكثر. لكن مصر التى سينعقد المؤتمر على أرضها يوم الأربعاء صممت على حذف كلمة الإرهاب من اسم المؤتمر طالما أن الذين سجتمعون هم صناع للسلام.

على كل حال لقد خمنت أن تل ابيب التى ستصاب بالشلل فى إجازه السبت ستكون مشغولة اعتباراً من الاحد بهذا المؤتمر الذى ستجلس فيه إسرائيل على «كوشه العروس». وليس مهماً لى أن أعرف ماذا سيعدون، لهذا المؤتمر طالما أن كل شئ يؤكد أن إسرائيل لاتريد الآن سوى محو حماس من على وجه الأرض بعد أن نجحت ـ حسب ظنها ـ فى تدجين السلطة الوطنية الفلسطينية.

كانت انباء القبض العشوائى على افراد حركة حماس فى كل مناطق الحكم الذاتى توحى لى ـ وربما لغيرى ـ أن الشرطة الفلسطينية تريد أن تثبت أنها بريئة من دماء الإسرائيليين حتى ولو أدى ذلك إلى القبض على ٨٠٠ فلسطينى بزعم انتمائهم لحماس.

فماذا تريد إسرائيل اكثر من ذلك؟. لقد تحولت الشرطة الفلسطينية ـ فجأة ـ إلى مخلب قط ينطبق عليه المثل: «بيدى لا بيدى عمرو».

ومن أجل ذلك يجب أن يكون مكانى هناك فى غزة.

هذا هو موفق يسأل عنى، شاب عشرينى ممتلئ قليلا، يميل إلى القصر، على الوجه ابتسامة مطبوعة ولد بها ولم تفارقه، يسير على الأرض وكأنه يقفز. وهيا بنا يا موفق إلى غزة.

اعتذر عما حدث يوم المطار، وقال انه صحح الخطأ اليوم وأتى بسيارة مرسيدس

من الصعب أن تخذله. ثم سألنى: أليس غريبا أن تختارنى ـ بعد ما حدث ـ لكى أوصلكما إلى غزة؟

فقلت له: أبداً.. أنت عربى ومصرح لك بالعمل هنا مع الإسرائيليين، فلماذا لاتستفيد من دولارات مصر بدلاً من أن تذهب، إلى سائق تاكسى إسرائيلى.

فرد على ضاحكا: ولكننى إسرائيلى بالفعل.. هكذا تقول الاوراق التى أحملها. وهكذا ستذهب دولاراتكم إلى إسرائيل.

أعجبتنى طلاقه لسانه وخفة دمه وأغرتنى بسؤاله: ألا ترى يا موفق أن الهدوء البادى فى شوارع تل أبيب هذه يتعارض مع الصورة المؤلمة التى يحرص الإعلام الإسرائيلى على تصويرها؟. لقد ظننت أننى سأرى الخوف والدموع فى عيون كل سكان تل أبيب، لكننى لا أرى شيئا من ذلك.

قبل أن يجيبنى أغلق النداء الداخلى للسيارة وكأنه يخشى أن يصل كلامه إلى مقر شركة التاكسيات التى يعمل بها ثم قال: معظم سكان تل أبيب هم أغنياء إسرائيل الذين ينتمون إلى أصول أوربية، أصيبوا بالخوف والرعب والدموع بالفعل فى أعقاب حادث «ذيزنجوف» ولكنهم ليسوا مثلنا. إنهم لايستغرقون فى الرعب والدموع طويلاً، بمجرد أن فرضت حكومتهم طوقاً أمنياً على مناطق الحكم الذاتى الفلسطينية أطمأنوا تماماً أنت بالطبع لاتعرف الطوق الأمنى إلا عندما تراه بعينك عندما نصل معبر أريز بعد نصف ساعة.

ـ حتى ولو كان كلامك صحيحاً ـ ياموفق ـ ألايخشى الإسرائيليون أن تجىء لهم الضربة من عرب إسرائيل الذين يعيشون أحراراً بدون طوق أمنى.

ضحك موفق طويلاً على ملاحظتى فأحسست انها غبية وفى غير مكانها، وحينما كف عن الضحك قال لى: يا أخ عاطف بغض النظر عن أن عرب إسرائيل

ـ الذين أنا منهم ـ يحملون جوازات سفر إسرائيلية فهم عرب بقلوبهم فقط. هل فهمتنى؟ نحن عرب ٤٨ الذين وضعنا ألسنتنا داخل أفواهنا ومشينا جنب الحيط كما تقولون فى مصر، لانملك القدرة على الفعل، وإسرائيل تعرف ذلك جيداً، وإلا لماذا منحتنا جوازات سفر، نحن نتمتع بكل حقوق المواطن الإسرائيلى عدا الخدمة فى جيش الدفاع الإسرائيلى، الشرطة ممكن، لكن الجيش لايسمحون به إلا للدروز والبدو.

قلت لموفق: ولكننى لاحظت أن إسرائيل تدق «اسفين» بين عرب إسرائيل وعرب المناطق ووصفتكم بأنكم شركاء فى الوطن.. هل هذا حب أم ماذا؟.

وغنى موفق وهو يطبل على «الدركسيون»: حب ايه اللى انت جاى تقول عليه، ثم اضاف: إذا تحدثت عن السياسة والأمرالواقع فلا تزج بالحب والكراهية فى الموضوع. المسألة أن هناك انتخابات يوم ٢٩ مايو القادم، وعرب إسرائيل يمثلون ١٠٠ ألف صوت قد تطيح بحكومة بيريز وحزب العمل وقد تبقى عليه، وطبعاً الوزراء الذين يشيدون بنا، هم فى الواقع يشيدون بالحقيبة الوزارية التى يقبضون عليها بكل قوة.

وتقترب السيارة من معبر أريز، الذى يفصل بين إسرائيل وغزة. كنت أعتقد أن موفق سيدخل بنا غزة لكنه توقف أمام كشك حراسة إسرائيلى يحتله جنديان إسرائيليان وقال: ستمشون مسافة نصف كيلو حتى يظهر العلم الفلسطينى وجنود الشرطة الفلسطينية، وهناك من السهل أن تجد سيارات تاكسى، أنت تعرف تليفونى حين تود العودة إلى تل أبيب اتصل بى من غزة وستجدنى فى انتظارك هنا فى أريز.

وتركنا موفق لجنديين إسرائيليين لايتعدى عمر كل منهما العشرين، يضعان

حزام الرشاش الإسرائيلى الشهير «عوزى» على كتفيهما بحيث يكون الرشاش فى وضع استعداد، ويضعان سبابتهما على الزناد تحسباً لأى طارئ فينتهى الامر فى أقل من الثانية، قلت لهما وأنا أقترب منهما: «شالوم» فرد على الجندى الاشقر باللغة الانجليزية: أين الهوية؟ أبرزت جواز سفرى وكذلك فعل إبراهيم مسلم. أطمأنا أكثر وسألنى الجندى الآخر: «مصرايم» فقلت له: نعم مصربون وهذه بطاقة الصحافة الدولية. وقبل أن يسمح لنا بعبور الحاجز القى نظرة فاحصة على محتويات حقيبتى وحقيبة شريك رحلتى ثم مضينا، قلت لزميلى ونحن نتأهب لقطع المسافة التى قال عنها موفق أنها نصف كيلو: الأمور فى غاية السهولة هنا وبعيدة عن التعقيد، هل هذين الجنديين فقط هما الطوق الأمنى الرهيب الذى حدثنا عنه السائق؟!.

حين انعطفنا يساراً بعد أن سرنا لمدة خمس دقائق وجدنا أنفسنا داخل كتيبة عسكرية إسرائيلية كلها فى وضع الاستعداد، إذن الحاجز الأول كان مجرد «تصبيرة» للحاجز الحقيقى. على البعد لمحت علم فلسطين ولكن المسافة بيننا وبينه مازالت بعيدة، قلت لابراهيم: سنمضى فى طريقنا فإذا استوقفنا أحدهم فلن يفعل اكثر ممافعله زميلاه الذين تحدثا ـ بالتأكيد ـ من التليفون وأكدا أن أوراقنا كاملة. ومضينا بالفعل حتى إذا ما وصلنا لآخر جندى إسرائيلى على آخر بوابة سألنا هو الآخر عن الهوية، وعندما علم أننا فى مهمة صحفية أمرنا بالعودة إلى أول جندى يجلس فى أول مكتب بالكتيبة، وبالطبع لم نكن نستطيع إلا إطاعة الأوامر. كان الجندى الذى ذهبنا إليه يرتدى نظارة طبية ويحمل ملامح عربية، ويتكلم أيضا بالعربية. قال لى بعد أن تفحص جواز السفر والبطاقة الدولية: نحن فعلا نسمح بمرور الصحفيين والسياح فقط، ولكن لماذا لم تستخرج لكما سفارتكما تصريحاً من مكتب الصحافة الحكومى الإسرائيلى؟ فقلت له: لقد أخبرونا أن جواز السفر

وحده يكفى. فرد الجندى بمنتهى الأدب: ربما لايعلمون أن كل عشر دقائق تصلنا تعليمات جديدة، لدرجة أننى اذهب للغداء وأعود فأجد تعليمات مختلفة عن التى كنت اطبقها قبل الغداء! على العموم ستضطران للعودة إلى القدس لاستخراج التصريحين فهل تعرفان المكان فى القدس؟.

قلت له: بالطبع لانعرف. فنادى على صحفيين أوربيين وطلب منهما التصريحين واعطاهما لى قائلاً: هذين هما التصريحين الذين يجب أن تحملاهما طوال فترة وجودكما فى إسرائيل. ثم وجه حديثه إلى الصحفيين يسألهما عن مكان مكتب التصريحات. وعندما تأكد أننا فهمنا أنه فى ٣٧ شارع هليل قال: أخشى عند عودتكما أن تجدا تعليمات جديدة.. ثم ضحك وانصرف إلى عمله.

ولكننى إستوقفته وطلبت منه أن يساعدنى فى البحث عن تليفون كى أتكلم مع السائق الذى أتى بنا ليقودنا إلى القدس، فأشار إلى تليفون على مكتبه قائلاً: «نو بروبليم».

كان موفق مازال فى الطريق إلى تل أبيب عندما سمع منى ماحدث، فقال عندما تصلون إلى المكان الذى تركتكما فيه ستنتظران لمدة عشر دقائق قبل أن ترونى أمامكما. شكرا يا موفق.

واعطينا ظهرنا للعلم الفلسطينى البعيد، وعدنا مرة أخرى نحمل خيبة الامل، وعندما رآنا أول جنديين سألانا: لماذا عدتما؟ فقصصت الحكاية من أولها، فأبديا دهشتهما وقالا: القدس ليست بعيده.. المسافات هنا بين المدن لاتتجاوز الساعة أبداً.. هل تحدثتما مع السائق ليعود إليكما؟.

وبعد الاجابة قال لى الجندى الاشقر: انتظرا بعيداً عن الكشك.. هناك فى «البارك».

كانت ساحة الانتظار مقفرة، فلا أحد يدخل ولا أحد يخرج، لم يكن هناك سوى سيارة تاكسى يبدو أنها تنتظر صحفياً أو سائحاً سيأتى من غزة.

ومن بعيد لمحنا سيارة موفق، فالحاجز مصمم بحيث يشرف على طريق متعرج تظهر السيارات فيه من بعيد بحيث يرى الجنديان أى شخص قادم على بعد نصف كيلو متر على الأقل، وهكذا رأينا سيارة موفق المرسيدس وقد أضاء كشافها الأمامى، وعندما وصل سألته لماذا تضيء الكشاف ونحن فى عز الظهر؟. وقبل أن يجيب تنبهت إلى أن كل السيارات التى قابلناها ونحن قادمين من تل أبيب تفعل الشئ نفسه. قال لى موفق: هناك تعليمات من المرور بأن تضاء الكشافات طوال شهور الشتاء نهاراً وليلاً لأن الضباب فى النهار يتسبب فى حوادث كثيرة، هل لديك أسئلة أخرى؟ قالها وضحك وهو يفتح لنا حقيبة السيارة الخلفية لنضع فيها حقيبتينا.

المسافة بين أريز والقدس ضعف المسافة بين تل ابيب وأريز، معلومة قالها لنا موفق بصورة فهمنا منها أن الأجر سيكون مضروباً فى أربعة لأنه سيصحبنا إلى القدس وسيعود بنا إلى أريز مرة أخرى.

قلت له: لن نختلف على «المصارى» وتأكد أننا ندفع لك عن طيب خاطر، وأنا شخصياً أحببتك، وأظن الحاج ابراهيم يشاركنى هذا الشعور، فرد الحاج ابراهيم: أى شخص لابد أن يحب موفق.

أوقف موفق السيارة بفرملة قوية مفاجئة قال بعدها: مشاعر المصريين جميلة جداً كلها صدق، ربما لانتمتع نحن بهذه المشاعر نتيجة لما عانيناه، وربما لانستطيع أن نعبر عن مشاعرنا مثلكم، ولكن الشئ الأكيد أن مصر معنى كبيرا بداخلنا لانستطيع وصفه بأى كلام، ورغم التعب الذى حل بكما فى أريز فأنا سعيد أننى

عدت لنذهب سويا إلى القدس.

هل من حسن حظنا أن عثرنا على هذا السائق الذى يسكن فى قرية فلسطينية أصبح اسمها إسرائيلياً تماماً مثل هويته؟. ظلمته حين اتهمته بينى وبين نفسى انه ينظر بحياد تام إلى الفلسطينين المحاصرين، وعندما قال لى ونحن فى طريقنا إلى القدس أن الذى يستحق الحب ليس هو ولكن المحاصرين فى مناطق الحكم الذاتى أدركت ساعتها أن أبشع من السجن والإعدام أن تبقى مشاعرك سجينه صدرك، وأن تبقى كلمتك أسيرة لسانك.

هو لايتعمد أن يكون كلامه معى بالقطارة، انما هو قد جُبل على ذلك. يتحدث طوال اليوم بالعبرية، وحين يعود إلى قريته وإخوته العشرة ليلاً يستعيد عباءته العربية، يفرش سجادة الصلاة ليصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء مرة واحدة، إنه واحد من عرب ٤٨ الذين رفضوا أن يحملوا لقب «لاجئ» فبقى على نفس الأرض التى شهدت ميلاد أجداده حتى ولو كان الثمن جواز سفر أزرق محفور عليه شمعدان اليهود!.

أين فلسطين الحقيقية التى أحببتها فى مدرستى وتغنيت باسمها؟

هذه لوحة على الطريق تُشير إلى عسقلان.. لكنهم أرادوها عبرية فكتبوا أشكيلون، وهذه لوحة أخرى تشير إلى بيت لحم ورام الله ونابلس، وهذا هو الطريق إلى حيفا وطولكرم وقلقيليه وجنين. من منا لم يحفظ هذه الاسماء اكثر مما حفظ اسم زميله على مقعد المدرسة. من منا لم يبك وأستاذ اللغة العربية يفسر لنا المعنى الذى قصده الشاعر فى قوله «مؤامرة الأعادى والصحاب».

هأنذا يافلسطين أجئ اليك، ولكن بتأشيره إسرائيلية، وها هم يمنعوننى من دخول غزة لأننى لم أمر على مكتب الصحافة الإسرائيلى، إنهم يضعون الأسوار

حول حلمى وحلمك. ويحولون بينى وبين احتضانك خفية دون أن يرانا شاب يحمل رشاش عوزى، وها هى جبال القدس ووديانها تطل علينا من بعيد، كم أتمنى أن أقفز من هذه السيارة وألقى بنفسى فى حضن هذا الوادى، أثق أننى لن اصاب بسوء. فمازلت يامدينتى مدينة الزيتون، من ينزف فيك لاتجف دماؤه، سيستجيب الله إلى دعائك ويبث فى شراييني الحياة من جديد.

يحاولون تهويدك وكل عصفور فيك يغرد بالعربية. يشيدون مبانى على الطرز الأوربية.. لكن الكلمة العليا تبقى لحجارتك العربية، يزعمون انك عاصمتهم لكنهم لايدركون انك تلفظين قتلة الأنبياء ولو طال مقامهم، شيدوا مستوطناتهم فوق جبالك.. فقولى لتلك الجبال أن تتمخض وتبتلعهم، لماذ يشوهون جمال شوارعك بهؤلاء الذين يرتدون السواد ويطلقون لحاهم المنفرة ويضعون قبعات غريبة فوق رؤوسهم؟.

هذه هى زهرة المدائن، قالها موفق قبل أن يضيف: ولكن هذه هى القدس الغربية التى يعيش فيها اليهود، فى القدس العربية لن يكون هناك هذا العدد من الحاخامات والمستوطنين.

كان هناك شاب إسرائيلى يجلس وحيداً فى مكتب الصحافة الحكومى، عندما علم بطلبنا قال: مواعيد العمل انتهت.. تعالوا يوم الأحد. قلت له؟ انت تحكم علينا ـ هكذا ـ بالشلل لمدة يومين.. الجمعة والسبت؛ فهل هناك مشكلة لو انك منحتنا استثنائين؟.

قال لنا: أوو.. هل انتم مصريون؟ حسنا.. ليس هناك مشكلة.

وفى خمس دقائق كنا قد حصلنا على التصريحين وهرعنا إلى حيث ينتظر موفق و.. هيا بنا إلى أريز، ولكن لندع الله ألا تكون هناك تعليمات أمنية جديدة.

ومن نفس الطريق عدنا إلى أريز وكان فى انتظارنا نفس الجنديين.. ونفس الجندى «أبو نضارة». وأخيراً أعطينا ظهرنا لعلم إسرائيل واستقبلنا علم فلسطين الحبيب بألوانه الأربعة التى تحكى قصة شعب حكمت عليه المقادير أن يسدد كل فواتير الألم بالنيابة عن العرب جميعا!.

كلما اقتربنا كبر العلم.. ورأينا جنود السلطة الوطنية الفلسطينية يقفون أسفله يحملون رشاشات كلاشينكوف روسية، لكنها ليست فى وضع الاستعداد للضرب مثل «العوزى».

حين أصبحت فى مواجهة أول جندى فلسطينى كانت الدموع قد أغرقت، وجهى وبللت نظارتى، فظن الجندى ـ المسكين ـ أن اليهود تعرضوا لى بالإيذاء، لم يدرك معنى أن يرى عاشق مثلى علم فلسطين يرفرف فوق أرض فلسطينية، لم يعرف أن بعضاً من الأحلام التى رضعتها فى بورسعيد قد تحققت أمامى الآن.

الفصل السابع

فندق الأمل

لقد ساعدت إسرائيل حركة «حماس» أثناء الانتفاضة حتى تقوض منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد أن توقفت الانتفاضة انقلب السحر على الساحر وأصبحت «حماس» - وليس المنظمة - هي التي تسرق النوم من عيون الإسرائيليين!

هل يرزقنا الله بسائق ـ مثل موفق ـ يكون مفتاحنا فى باب غزة؟

ولكننا لانحتاج هنا إلى مفتاح فالأبواب مفتوحة للأحباء والحالمين و.. المحاصرين.

بمجرد أن سلمنا على الجنديين الفلسطينيين تقدم منا شاب فلسطينى فى مثل عمر موفق يسألنا إذا كنا نريد تاكسى، حاول أن يحمل عنا الحقيبتين فرفضنا، وسألته عن اسمه فقال: ماجد. كانت سيارته ملاكى وليست تاكسى، وعندما لاحظ ترددنا قال بلهجة مصرية: «الرزق يحب الخفية».

بمجرد أن جلست إلى جواره قال: بعد أن فرضت إسرائيل الطوق الأمنى بقى هنا فى غزة اكثر من ٣٠ ألف شاب بلا عمل، هؤلاء كانوا يخرجون يومياً إلى إسرائيل يعملون فى البناء أو الزراعة أو الحرف الأخرى ويعودون فى الليل. لكن إسرائيل أخذت الكل بجريرة «حماس» وفرضت عقاباً جماعياً علينا، يظنون أننا سننكسر ولكن هيهات، يبدو أنهم نسوا صمودنا أثناء الحصار الكبير فى حرب الخليج، لقد حددوا إقامتنا فى غزة وفرضوا حظر التجوال طوال اليوم إلا على النساء لكى يذهبن إلى السوق، ومع ذلك لم نمت من العطش ولم نتضور من الجوع ولم نلهج بالشكوى، فقط بالدعاء إلى الله لكى يخلصنا من بنى إسرائيل.

ـ وما علاقه ما قلته يا ماجد بحكاية «الرزق يحب الخفية»؟.

ـ الحكاية واضحة.. كل شاب عنده سياره ملاكى حولها إلى تاكسى حتى لاينقطع رزق بيته، فالرزق يأتى من السماء وليس من إسرائيل، وعلى فكرة أنا لم أسألكم حتى الأن عن المكان الذى تريدون الذهاب إليه.

قلت له: بصراحة غزة هى المكان، التفاصيل لاتهم. أى مكان نضع فيه حقيبتنا

سيفى بالغرض، فنحن نقصد الشارع الفلسطينى الذى يبحث عن الأمل، الأمل فى السلام الحقيقى الذى يعيد إليه حقه غير منقوص، الأمل فى ان يكون هناك دولة حقيقية يدخل اليها المرء دون حصوله على تأشيرة من بنى إسرائيل، الامل فى أن يتحول عذاب ٤٨ سنة إلى ضحكة عالية مجلجلة يطلقها طفل فلسطينى فى غزة فيسمعها شقيقه فى العراق وشقيقه الآخر فى المغرب.

نظر إلى ماجد طويلاً ولم يرد، وبقى الصمت جاثماً فى السيارة حتى قاطع الحاج إبراهيم صمته بملاحظة عن سكون الشوارع واغلاق المحلات التجارية واختفاء الاطفال الذين يلعبون فى الشوارع ساعة العصارى.

فيرد ماجد على الملاحظة ويقول: هل نسيتم أن اليوم هو الجمعة؟ فى هذا اليوم يجلس الجميع فى بيته وإذا رأيت أحداً يمر فى الشارع فلابد أنه متوجه لزيارة أقربائه، فكلنا ـ تقريباً ـ أقرباء حقيقيون وليس بالمعنى المتداول على طريقة «الأشقاء العرب».

ـ يبدو لى يا ماجد انك حانق على الاشقاء العرب.

يضحك الشاب الفلسطينى وهو يقول: سألف بكم فى شوارع غزة حتى تعرفان ماذا قدم لنا الأشقاء لكى نبنى البنية الأساسية فى المكان الذى نعيش فيه، أنظر إلى الشوارع المليئة بالحفر.. انظر إلى المجارى التى تملأ كل مكان وتزكم برائحتها الأنوف. أعتقد أنكم كنتم فى تل أبيب ورأيتم النظافة والنظام والبنية الأساسية. اليهود كانوا يحتلون هذه المدينة وحرصوا على أن يخربوها لأنهم يعلمون فى قرارة انفسهم أنهم سيخرجون منها يوماً ما، هل يمكن أن تصدق أن هذا الوطن الصغير هو عاصمة الدولة الفلسطينية، يقولون أن هناك دول مانحة، فإين هى هذه الدول؟ نحن نريد نتائج نراها بأنفسنا، غزة فى حاجة إلى كل ما تحتاجه أى مدينة

من مدارس ومستشفيات وجامعة و.. و.. وشكراً للأشقاء العرب.

ويعتذر ماجد عن لهجته الحادة ثم يقول لى: طالما تحدثت عن الأمل مارأيك فى أن تنزل بفندق الأمل. سيعجبك جداً.. ولكن إعجابك سيتراجع إذا عرفت أنه كان فى الأصل معهدا دينيا وتم تحويله لفندق من باب «الرزق يحب الخفية» أظنك فهمتنى تماماً، هناك فى الفندق ستجد مجموعة من الشباب الفلسطينى، منهم من جاء من مصر عقب إعلان الحكم الذاتى وأغلبهم من شباب الانتفاضة، أراهن أنك ستسمع منهم كلاماً سيجعلك تقترح تغيير اسم الفندق من الأمل إلى أى شئ آخر لايعرف خيوط الضوء الأبيض.

الشباب الفلسطينى لايبادر أبداً بكسب ود الغريب، حتى ولو كان هذا الغريب مصرياً. كنت إعرف ذلك قبل أن أكتب إسمى فى دفتر الاستقبال بفندق الأمل.

الشاب الذى يقف خلف منصة الاستقبال ملامحه «عرايشيه بدوية». وجهه منحوت بحيث يصعب عليه الابتسامة رغم انه كان لحظة دخولنا يتابع فيلما لاسماعيل ياسين، ولكن يبدو أن «مفعولك يابو السباع لايجدى هنا»!.

صممت على أن أفرض نفسى عليهم بأى شكل. فهؤلاء هم الذين اتيت اليهم وليس السادة الذين يرتدون البدل ويركبون المرسيدس ويعملون فى السلطة الوطنية الفلسطينية.

جلست فى الكافتيريا وطلبت شاياً وشيشة، كان يجلس غير بعيد منى شاب سمين يتحدث بلهجه مصرية ويبدو على ملامح وجهه أنه يحمل القضية الفلسطينية وحده على كتفيه، عزمت عليه بالشيشة فرد على بقوله: واجب علينا.. انتم ضيوف.

كمن هيأ لى الكرة لكى أسدد فى المرمى رددت عليه: ولكنكم حتى لاتقولون لضيوفكم أهلاً وسهلاً!.

قام من مكانه واقترب منى وهو يسحب كرسى «بامبو» ثم قال: اعذرنى يا أخى.. الظروف مش ولابد ولانعرف إلى أين ينتهى الطريق.

ـ سألته.. ما اسم الكريم؟.

ـ ابراهيم.. ابراهيم ابو راغب وأنا تقريباً مصرى مثلك!.

ـ كيف؟.

ـ أنا ولدت فى مصر وتعلمت فى مدارس وجامعات مصر، ولأن بلدكم تسمح لنا بممارسة العمل الحر افتتحت بوتيكا فى شارع قصر النيل. كان يدر على الآلاف وأصبحت من الموسرين بحمد الله، وعندما تم توقيع اتفاقية الحكم الذاتى ورفع علم فلسطين فوق غزة والضفة قلت لأبى هيا بنا إلى الوطن، ووافقت رغبتى رغبة أبى وأمى، مثلما وافقت رغبة زوجتى وشقيقاتى وأشقائى، وبطبيعة الحال بعت البوتيك والشقة التى كنت أمتلكها فى مدينة نصر وجئت إلى هنا. لم أجد أى مشروع أضع فيه أموالى سوى فى هذا الفندق فأصبحت شريكا فيه حتى اكتشفت أننى شربت أكبر مقلب فى حياتى، لقد صدقت ـ مثل الكثيرين ـ أن إسرائيل ردت الينا أرضنا لانها تريد السلام، واتضح لنا هنا أن إسرائيل لاتريد «لا سلام ولا كلام». ماحدث أن الانتفاضة كانت تسبب لهم «وجع راس» وتنهك اقتصادهم، ولأنهم ـ كما ترى ـ ليس لديهم أى استثمارات هنا قالوا لماذا لانسجنهم فى هذه الأرض الخربة ونسلم مفتاح السجن للسلطة الوطنية الفلسطينية، ولابأس من أن يرفعوا علمهم طالما أنهم سيكفوا عن رمينا بالحجارة وطالما أننا سنستفيد عالمياً من هذه الخطوة وينظر الينا العالم كدعاة سلام، وهكذا سلمت لنا إسرائيل غزة ولم

تنس أن تترك فيها ١٤ مسماراً لجحا.. أو بمعنى ادق ١٤ مستوطنة لابد أنك رأيتها وانت فى الطريق إلى غزة، ونفس الشئ فعلته فى المدن السبع بالضفة الغربية.

ويصمت ابراهيم فجأة كأنه تنبه إلى التورط فى الحديث معى بهذا الشكل.

فأكملت له الجملة التى خمنت أنه سيكمل بها الحديث وقلت: وعند أول اختبار حقيقى ظهرت النوايا الإسرائيلية الحقيقية.

فصاح ابراهيم: الله ينور عليك، واضح أن الحكاية «اتفقست» ولكن أبوعمار والسلطة الفلسطينية لهم رأى آخر، بدليل حملات الاعتقالات القمعية التى تقوم بها الشرطة الفلسطينية وكأنها تتلقى أوامرها من موشى شاحال وزير الأمن الداخلى الإسرائيلى، وأرجو أن تصدقنى أن ما يحدث من الشرطة الفلسطينيةيحقق الهدف الذى سعت اليه إسرائيل من حكاية الحكم الذاتى «بيدى لابيد عمرو».

ويكمل ابراهيم بعد أن نضحت أمارات اليأس على وجهه: حاولت أن أعود إلى مصر فمنعونى ومعى المئات على الحدود، مصر لم تعد تريدنا، حاولت مراراً ولكننى فشلت. ذهبت إلى السفير محمود كريم سفير مصر فى غزة أرجوه أن يمنحنى تأشيره فرفض، فأدركت ساعتها أننى وكل الذين يعيشون هنا فى سجن كبير، حتى السجن يحصل فيه السجناء على غذائهم بانتظام أما هنا فتوجد أزمة فى الخبز وفى السكر وفى الزيت وفى الارز، إنك لاتعلم معنى الطوق الأمنى، فناهيك عن مخزون الغذاء الذى ينفذ، إسرائيل ترفض مرور المرضى الذين يعالجون بانتظام فى مستشفيات داخل اسرائيل مثل مرضى الفشل الكلوى والسرطان. وهؤلاء لو لم يتلقوا علاجهم فى الميعاد المحدد يموتون، وهذا ما حدث مع ١٨ مريضاً حتى الآن اضيفوا إلى قائمة شهداء فلسطين. والآن هل قبلت

اعتذارنا لأننا لم نرحب بك على الوجه اللائق؟.

ـ لقد نزعت قلبى يا ابراهيم من صدرى، وألقيت به فى الناحية الأخرى من أريز، إنك حتى لم تدع مكاناً لطاقة أمل.

فقال ابراهيم: ليس لنا من الأمل إلا اسمه المعلق خارج هذا الفندق، وكلما نظرت إلى الإسم ضحكت لأننى أنا الذى اخترته!.

حين هلت نسمات المساء من البحر المتوسط حاملة معها رائحة اليود ومذاق الاسماك ساءلت نفسى: أتراهم يستقبلون هذا العبير مثلى، أم أن معاناتهم جعلت حواسهم الشميّه لا تلتقط إلا رائحة الخطر الذى يعصف بهم من كل صوب؟.

قلت لنفسى سأذهب إلى العميد غازى الجبالى قائد الشرطة الفلسطينية.الذى حصلت على رقم تليفونه وأنا فى القاهرة، ومن تليفون الاستقبال بالفندق تحدثت مع الرجل واتفق معى على اللقاء بعد نصف ساعة بمكتبه وقال أن أى شخص بالفندق يمكن أن يدلنى على المكان.

سألت سالم موظف الاستقبال عمن يمكنه مصاحبتى إلى مكتب العميد الجبالى فرد شاب كان يقف على مقربه منا: أنا أقوم بالمهمة.. هيا بنا.

انه شاب آخر عبوس الوجه، ولكنه لم يصل بعد إلى سن العشرين.

قلت له أريد أن اصل إلى هناك سيراً على الأقدام حتى أرى غزة فى المساء بتمعن، كما أن الموعد بعد نصف ساعة، فهل يضايقك ذلك؟.

فقال الشاب «محمد»: على العكس.. فأنا من هواة المشى.. كما أن المسافة لاتحتاج إلى مواصلة.

لم أكن أعرف أن الظروف ساقت لى كنزاً بمحض الصدقة، نعم هذا الشاب

الذى يسير إلى جوارى نجح فى أن يجعلنى أخجل من نفسى.

ـ بادرنى محمد بالكلام: هل تسمح لى بأن ادخل معك إلى مكتب العميد غازى؟ هذا هو شرطى لتوصيلك إلى هناك.

ـ فقلت له: لو سمح لك موظفو مكتبه بالدخول فليس عندى مانع.

ـ فقال: سيسمحون لو أننى عبرت معك البوابة الرئيسية.

ـ قلت له: ولماذا تريد مقابلة العميد غازى بهذه الطريقة المحرجة لى وربما له أيضاً؟.

ـ فقال: أريد أن أسأله لماذا قبض على المهندس الزهار ـ وهو ليس من كتائب عز الدين القسام التى تقوم بالعمليات الانتحارية؟.

ـ وهل الزهار قريب لك؟.

ـ بغض النظر.. الزهار برئ تماماً وينتمى إلى حماس بقلبه فقط.

ـ وكيف تعرف ذلك؟ ألا يجوز أنه يخطط لينفذ غيره؟.

ـ لا أظن.. فالرجل الذى يرسل أبنائه لكى يتعلموا فى امريكا لايخطط لمثل ذلك، ربما يكون له دور فى تبصير الشباب بما يجرى حولهم ويثير فيهم الحمية الوطنية لكنه لايمكن أن ينصحهم بوضع حزام متفجرات حول خصورهم ليموتوا بهذه الطريقة.

ـ أنت ـ إذن ـ ضد حماس وضد العلميات الانتحارية.. اليس كذلك؟.

ـ ليس بالمعنى الذى وصلك، فأنا واحد من الذين أفرجت عنهم إسرائيل مؤخراً من معتقل النقب الرهيب كجزء من اتفاقية الحكم الذاتى.

ـ أنت إذن من شباب الانتفاضة الأبطال.

ـ كنت منهم حتى قبضت على سلطات الاحتلال لأمكث في سجونهم ٢٤ شهراً. أنا الآن شاب عاطل بلا عمل، وكلمه بطل هذه لاتنطبق على أبداً.

ـ لاتهون من شأن نفسك، فالانتفاضة التى قمتم بها هى التى جعلت إسرائيل تنسحب من غزة ليرفرف علم فلسطين فوقها.

ـ لاتصدق ذلك، فمازالت إسرائيل تحتلنا، طالما أننى لا أستطيع أن أعمل فى بلدى أو أن أسافر إلى أى مكان فأنا سجين، وإذا أردت أن تجلس مع شباب الانتفاضة أو شباب منظمة صقور فتح فى معسكر الشاطئ تعال وأنت تسمع بنفسك لتعرف أن الحكم الذاتى لعبة ضحكت بها إسرائيل على الختيار - يقصد أبو عمار - والطوق الأمنى المفروض علينا يؤكد أن ثمن وقف الانتفاضة كان بخساً، إن الحرية المنقوصة لاتختلف كثيراً عن السجن.

ـ أخشى أن أقول ـ يا محمد ـ انك ضد السلام؟.

ـ لماذا تقول ذلك؟ أنا شاب وأريد أن أبنى أسره، وقبلها أريد أن أعمل عملاً شريفاً، وأعيش فى وطن حر تتوافر فيه كل وسائل الحياة الأساسية لا الترفيهية، وأريد أن أطوف العالم كسائح وليس كلاجئ، وأريد أن ينشأ أولادى فى جو صحى ليس فيه خوف أو جوع أو معتقل، كل هذا لن يتحقق إلا بالسلام الحقيقى. السؤال هو: هل تقبل إسرائيل أن تمنحنا هذا السلام؟ الإجابة التى يعرفها الجميع ـ خاصة الذين يعرفون إسرائيل ـ هى أن هذا السلام مثل الغول والعنقاء والخل الوفى، مستحيل يعنى.

ـ لو سألتك منذ عام عما إذا كان يمكن لإسرائيل أن تعترف بمنظمة التحرير

الفلسطينية لقلت مستحيل أيضا.

ـ لا.. هذا قياس خاطئ، فإسرائيل هى التى سعت إلى المنظمة وليس العكس، سعت اليها مضطرة لأنها فضلت الخيار السياسى الوحيد لقمع الانتفاضة بعد فشل رصاصهم المطاطى فى قمعها، إسرائيل مازالت تعتبر المنظمة عدوا لها، ولكنها تعلم أن عرفات أفضل كثيراً من زعماء المنظمات الأخرى، وقبل ذلك هى تعلم أن الشعب الفلسطينى يعتبر المنظمة هى الممثل الشرعى والوحيد له، أضف إلى ذلك أن الرئيس عرفات رجل يتمتع بقبول فى العالم أجمع باختصار؛ إسرائيل قبلت بالامر الواقع ولكن على مضض. ومع ذلك لم تسدد فاتورة تُذكر مقابل ذلك، لقد وضعونا فى «جيتو» كالذى كانوا يعيشون فيه فى الشتات، نتحرك بحرية فى الحارة ولكن لانستطيع أن نلعب فى الشارع.

ـ ولكن يا محمد هناك أجزاء أخرى من الاتفاقية لم تتم.. كما أن موضوع القدس لم يحسم بعد.

هل تقصد اعادة الانتشار فى الخليل؟ بعد ماحدث مؤخراً لن يعيدوا الانتشار سواء ظل بيريز فى الحكم أو جاء نتانياهو، وحتى لو حدث وأعادوا الانتشار فلن يختلف الأمر كثيراً. بمجرد أن يعبر أحدنا عن غضبه سيعود الطوق الأمنى وتعلق لافته على السجن تقول ممنوع الزيارة! أما مسألة القدس التى لم تحسم فهى مربط الفرس، هل تعلم ماذا تريد حركة حماس؟.

ـ نعم دولة مستقلة عاصمتها القدس.

ـ وهل تتصور أن إسرائيل ستقبل بذلك الآن أو مسقبلاً؟ صدقنى ليس أمامنا سوى حل واحد

ـ ما هو؟.

ـ عودة الانتفاضة!.

نحن الآن أمام البوابة الرئيسية لمقر الشرطة الفلسطينية فى غزة. وجدنا أنفسنا عقب الإجراءات الأمنية العادية فى مكتب العميد غازى الجبالى الذى لم يبرح مكتبه منذ أن بدأت عمليات حماس، كان الرجل غارقاً بين قراءة التقارير التى تصله كل ٥ دقائق واعطاء تعليماته الفورية ثم تقديم تقرير كل ساعة للرئيس عرفات، وفى الوقت نفسه متابعة ما يجرى فى الراديو والتليفزيون.. ومع ذلك سمح لنا باللقاء.

حين رأيته على هذه الصورة قلت له: اعذرنى يا سيادة العميد.. لن أسامح نفسى إذا أخذتك من هذا كله، لكن الرجل يرد: طالما انك تسعى لمعرفه ما يجرى فيسعدنى أن أضعك فى الصورة، ومن الافضل أن تعرف الاخبار من هنا لأن الشائعات كاد صوتها يعلو ـ فى الخارج ـ على الأخبار الحقيقية.

ـ قلت له: يقولون فى الشارع أنكم تحولتم إلى مخلب قط تنفذون ما تريده السلطة الإسرائيلية وليس السلطة الفلسطينية.. هل هذا من قبيل الشائعات؟.

ـ فقال قائد الشرطة الفلسطينية: بل هو من قبيل الإفتراءات والأكاذيب، فنحن لا نتلقى أوامرنا إلا من سلطة واحدة وهى السلطة الفلسطينية، ولاننتظر تقييماً لأدائنا إلا من الرئيس عرفات فقط، أنا أعرف أننى أقوم بواجباتى مع ورجالى على أكمل وجه، ونحن رجال شرطة لاندخل فى لعبة السياسة أو المزايدات.

ـ قلت له: لكنكم حريصون على أن تجدوا فى البحث عن القائمة التى تطلبها إسرائيل ـ التى تضم ١٣ إسما ـ مما جعلكم تقبضون على الناس قبضا عشوائياً.

ـ فقال: نعم قبضنا على ٧ من حركة حماس وباقى ٦ من القائمة.. نبحث عنهم ليس إرضاء لإسرائيل، ولكن هؤلاء يعملون ضد السلطة الفلسطينية، لقد كان الشعب يتعاطف معهم حينما كانوا يقاومون الاحتلال. الأمور تغيرت الآن وأصبح هناك سلطة فلسطينية بدون محتل، الشعب الآن بعد أوسلو يسير فى سلام، الجهاد ضد المحتل مشروع منذ أيام الثورة الفرنسية ولكن أين المحتل الآن؟ هناك سلطة فلسطينية تسعى للسلام وهناك شعب فلسطينى يسعى للسلام، وهذا ما يجب أن تعرفه حكومة إسرائيل التى لجأت لأسلوب العقاب الجماعى على اعتبار أن كل شعب فلسطين هو حركة حماس وهذا غير صحيح.

ـ سيادة العميد: لقد قبضتم مؤخراً على محمود الزهار فى إشارة واضحة إلى أنكم ستصفون حماس نهائياً حتى هؤلاء الذين لاينتمون منهم للجناح العسكرى.

ـ نعم قبضنا على محمود الزهار لا لكى نسجنه ولكن لكى نحقق معه، وقد أكد أنه لاينتمى إلى كتائب عز الدين القسام، وهو الآن فى المراحل الأخيرة من التحقيق، لكننا ـ مع ذلك ـ لانقبض على أى شخص ينتمى «لحماس» نحن نقبض ـ فقط ـ على من يعمل ضد السلطة الوطنية الفلسطينية ويخطط لحماس أو يمولها ونحن نطلب منهم أن يتحولوا إلى أحزاب سياسية معترف بها بدون ذلك سنستمر فى مطاردتهم والقبض عليهم ونزع الأسلحة منهم حتى تكون هناك سلطة واحدة للفلسطينيين وليس سلطتان، وحتى لوسقط عدد من الضحايا فى هذه المعركة فلن نتوقف.

ـ ولكن ألا يوجد أسلوب آخر غير أسلوب توسيع دائرة الاشتباه؟.

ـ كل الدول فى الأزمات تلجأ لتوسيع دائرة الاشتباه على اعتبار أن التحقيق يفرز المتورط والبرئ. والحمد لله أن التحقيقات تجرى بمنتهى العدالة ولانفترض فى

الشخص المقبوض عليه أنه مجرم عليه إثبات براءته، بل العكس هو الصحيح. ولكنني أريدك أن تعلم أن حماس التى تبكى منها إسرائيل اليوم هى صناعتها، لقد ساعدت إسرائيل حماس أثناء الانتفاضة حتى تقوض منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد أن توقفت الانتفاضة انقلب السحر على الساحر وأصبحت حماس ـ وليس المنظمة ـ هى التى تسرق النوم من عيون الإسرائيليين.

الفصل الثامن

داخل الهرم الفلسطينى؟!

**وكأننا أتفقنا أن نمارس أدوارنا فى مسرحية السلام..
لا لكى نوصل رسالة إلى العالم، ولكن لأننا
فقدنا الثقة فى أننا نستطيع تحريك
(الوزير) من مكانه لنقول لأمريكا وإسرائيل
(كش ملك)**

من حق الشعب الفلسطينى أن تكون له شرطة، لكن إسرائيل أرادتها شرطة ضد من يعمل ضـدها. وهذا الرصاص الذى سمحت لهم به، وهذا العـدد الضخم من بنادق الكلاشينكوف موجه إلى صدور فلسطينية!

لم يتركنى محمـد بعد أن خرجنا من مركز قيادة الشرطة الفلسطينية، لكنه ظل واجماً أثناء سيرنا لايـتحدث، يركل الحجارة بقدميه بحركـة لاشعورية، حتى قلت له: هذه الحجـارة لاتركل بالقدم، وبسرعـة التقط المعنى الذى أرمى إليه فـقال لى: لايوجد حجـر مقدس إلا فى مكة. الحجـر الاسود فقط هو الذى نقبله ونـحتضنه، أما حجـارة الشوارع فتتوقف قـيمتهـا على اليد التى تستخدمـها والفكرة من وراء استخدامهـا، كانت مقدسة حين احتضنتها مع اخـوانى الشباب والاطفال وتحولت فى ايدينا إلـى صـواريخ «تومـاهوك» التى يقـول عنهـا الأمـريكـان أنهـا لاتخطئ الهدف، أما الآن فهى عاطلة مثلى تماماً، إذن هى لاتستحق أن تكون مقدسة، وأنا لا أستحق أن أوصف بالبطولة.

قلت لمحمد: هل تعارض أتفاق اوسلو للسلام؟

ـ فقال بدون تردد: نعم أعارضه ولكننى لن أقول لك لماذا. سأترك المهمة لمن هو أقدر منى على شرح ابعاد هذا الاتفاق.

ـ من تقصد؟

ـ الدكتور حيدر عبد الشافى.. هرم غزة الأكبر والوحيد.

ـ أنا أتوق ـ بالفعل ـ إلى لقـاء هذا الرجل ولكن غداً صباحـاً أفضل.. فلابد أن كهلا مثله لايسهر حتى هذه الساعة.

ـ الأهرام لاتنام يـاصـديقى. ولكن مـن الأفـضل أن تلتـقى به فى الغـد لأننى

سأصحبك الآن إلى مقر رئاسة الدولة الفلسطينية، ألا تريد أن ترى المبنى الذى يمثل السلطة الفلسطينية؟.

ـ ولكننى لا أريد أن أقابل أى شخص منهم: فكل ما عندهم تنقله الصحف ووسائل الاعلام، ومع ذلك لابأس من إلقاء نظرة.

وذهبنا إلى هناك، مبنى متواضع أشبه بمبانى الإصلاح الزراعى فى القرى المصرية، الشئ الوحيد الذى يميزه هو علم فلسطين والسيارات المرسيدس والبى.ام. دبليو التى تنتظر أمامه!.

وقفنا هناك قليلاً نتحدث مع جنود الحراسة ولم يكن يقطع حديثنا إلا أصوات السيارات الفاخرة السوداء التى تمرق من جوارنا فينظر محمد إلى رقمها ويخبرنا باسم صاحبها

الآن فهمت الرسالة التى كان محمد يريد أن يوصلها لى دون أن يتكلم، فاستأذنت الجنديين فى الانصراف.

قلت له: أنت تعتقد ـ ومعك كل الحق ـ انه لولا أنتفاضتكم ماجاء هؤلاء السادة من منفاهم بسياراتهم الفاخرة ومكاتبهم الوثيرة وأجهزه تكييف غرف نومهم، بينما أنت وأمثالك تهيمون على وجوهكم فى شوارع غزة. أليس كذلك؟.

ـ بصوت منكسر واهن أجابنى محمد: ما أريدك أن تعرفه أن قلبى لايعرف الحقد، فأنا لا أريد سيارة ولا مكتب ولاجهاز تكييف.. على الأقل الآن. كل ما أريده أن يفهم هؤلاء أن إسرائيل خدعتنا لأنها لاتريد سلاماً. أريدهم أن يكفوا عن القبض على الشباب إرضاء لإسرائيل، لأن اليهود لن يرضوا عنا، ألم يقل الله فى كتابه العزيز: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى». أريد ألا تحيل السلطة الوطنية الفلسطينية التراب على الأيام التى حاربنا فيها بالحجارة، والشهور الطويلة

التى قضيناها فى السجن، والشعر الأبيض الذى غطى رؤوسنا رغم أننا فى حكم الزمن مراهقون. هذا هو جوهر الرسالة الذى أريدك أن تنقله لشباب مصر ولشباب العرب، والأن سوف اتركك وأذهب إلى معسكرالشاطئ كى أطمئن على الشباب.

تركنى محمد فى منتصف الطريق إلى الفندق بعد أن وضع الأغلال فى يدى وقدمى ولسانى، ماذا يفعل الشباب العربى الذين هم فى سن محمد هذه اللحظة؟، هذا هو الخاطر الذى داهمنى وأنا أحاول لململة بعضى من بعضى. فما قيمة كل شىء وأى شىء بجوار العشرين عاماً التى انقضت من عمر هذا الشاب الذى لم يعرف الطفولة، ولم يمر بمرحلة المراهقة؟ ما قيمة ما سأكتبه بجوار ما كتبه محمد وزملاؤه؟ لقد أضرم هذا الشاب حريقاً فى غرفة جلوسى مع نفسى، ولم يدلنى على الماء الذى سأخمد به نيرانه، فلماذا كنت تقف بجوار التليفون وأنا أحادث قائد الشرطة؟ ولماذا تطوعت للمجىء معى؟ ولماذا لم تسأل العميد الجبالى السؤال الذى كان يلح عليك؟

وطال على الليل، وأنا استعرض الساعات القليلة الطويلة والعامرة التى مرت بى منذ هبوطى من منزلى بالحلمية، وحتى وقوفى الآن فى شرفة غرفتى بفندق الأمل بغزه استجدى الصباح حتى لايتأخر عنى، حتى إذا ما فشلت محاولاتى رسمت أمامى صورة الدكتور حيدر عبر الشافى الذى سوف أزوره غداً. ذلك الطبيب الثرى الذى رفض مغادرة غزه فظل فى بيته مع زوجته، وبقى فى مستشفاه مع مرضاه، وأصبح رمزاً من رموز الصمود الفلسطينى، وعندما رأس وفد فلسطين فى مفاوضات واشنطن فضح نوايا اسرائيل وكشف الأعيب مفاوضيها. وعندما وقع عرفات على اتفاقية أوسلو، رفضها جملة وتفصيلاً. وظل على موقفه

لايتزحـزح قيد أنمله. ومع ذلك رشح الرجل نفسـه فى المجلس الوطنى الفلسطينى وحصل على أعلى نسبـة ليظل الهرم الشامخ الذى ينظر إليه الفلسطينيـون بقداسة وحب واحترام.

ولأن حيدر عـبد الشافى حين أعلن مبـررات رفضه كان يقرأ المستـقبل، أصبح الجلوس إليه فى هذه الظروف محاولة أخرى لقراءة مستقبل أبعد وأعمق.

وحين جلست أمـام ذلك الهرم حـاولت أن أكسر حـاجز السن وحاجـز الغربة حتى أدلف إلى أعـماقه من أقصر طريق، قلـت له: سمعت أن القهوة التـى يشربها الضيف فى بيت حيدر عبد الشافى تترك ذكرى لايمكن أن تمحى!

فرد الرجل وهو يضحك: ياترى ذكرى طيبة أم ذكرى...؟

فقـلت له: بل ذكرى مـفعـمة برائحـة الوطن وطعم الصمـود وحلاوة الإيـمان بهدف نبيل من الميلاد حتى الممات.

انحسـرت ابتسامـته قليلاً وهو يعـقب على: أنت لخصت قصـة حياتى أكـثر مما وصفت القهوة التي تصنعها زوجتي.

دكـتور حـيدر.. كل شئ فـيك وديع يجنح إلى السلم، لكنك أصـبحت تحـمل لقب الصـقـر الأول المـعـارض لاتفـاق اوسلو للسـلام. هل تتـكرم وتحل لى هذه الفزورة؟.

نظر «الختيـار» بعيداً كأنه يستـدعى احداثاً ابتلعتهـا الايام ثم قال: لا.. ما هكذا تورد الإبل كما يقولون، فنحن كفلسطينيين التزمنا من البداية بالسلام منذ أن اتخذ المجلس الوطنى الفلسطينى قراره بقـبول مبدأ الدولتين كأساس المـفاوضات لإنهاء الـنزاع الفلسطينى الإسـرائيلى. حـدث ذلك فى نوفـمـبـر ١٩٨٨، وبناء على هذا

الالتزام الذى رفضته إسرائيل لم يكن من الصعب على الفلسطينيين المشاركة فى عملية السلام التى تبنتها أمريكا وروسيا فى آخر سنة ١٩٩١ وبدأت فى مدريد وتواصلت فى واشنطن. ومنذ أن بدأنا المفاوضات كان واضحاً أن إسرائيل لاتريد أن تلتزم بمرجعية السلام وهو قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز الاستيلاء على اراضى الغير بالقوة وينص على أهمية الانسحاب وإرساء السلام على أساس حق الفلسطينين فى تقرير المصير. ولهذا بقيت مفاوضات واشنطن التى كنت رئيساً لوفد فلسطين فيها فى مأزق طوال الوقت، والسبب كان عدم قبول إسرائيل بوقف عملية الاستيطان التى كانت متناقضة مع مرجعية السلام، ومتناقضة مع أسس عملية السلام التى تقول لايجوز الإقدام على أى عمل فى الاراضى المحتلة يمكن أن يؤثر على المفاوضات النهائية لتحديد الوضع النهائى لتلك الأراضى. وكان استمرار إسرائيل فى الاستيطان هو العامل الذى لا يمكن أن يتماشى مع السلام، كانت وجهة نظرنا كوفد فلسطينى أن توقف إسرائيل عملية الاستيطان كى تعطى المصداقية لعملية السلام، لكن إسرائيل رفضت ومن ثم حدث المأزق التفاوضى الذى استمر طوال فترة المفاوضات.

وينظر د. عبد الشافى فى فنجان قهوته الخالى ثم يضيف: فى ظل هذا المأزق جاء اتفاق أوسلو، وزعموا فى حفل التوقيع بأن هذا الاتفاق أزال كل المصاعب، وأن السلام على الأبواب، إلى آخر كل ما قيل فى حفل التوقيع من قبل أمريكا وإسرائيل وبموافقة سلطتنا الفلسطينية. هذا الادعاء تبين بعد وقت قصير بأنه إدعاء كاذب، فما حدث أن العالم وضع تحت الوهم بأن العقبات أزيلت وأصبحت الطرق ممهدة. إسرائيل استغلت هذا الوهم، وبينما كانت تدعى بأنها جمدت الاستيطان أثناء مفاوضات واشنطن، بدأت تنشط فى العملية بعد اتفاق اوسلو. ولذلك من البداية أفقدت إسرائيل عملية السلام مصداقيتها، ومع هذا، وبرغم أننا

كنا نطالب السلطة الفلسطينية بإطلاع العالم على حقيقة الموقف.. ليكون العالم على علم حتى لايأتى أحدهم فى نهاية المطاف ويسألنا: لماذا لم تقولوا ذلك من البداية؟. إن الذى كان يحدث منذ البداية وحتى اليوم أقرب إلى أن إسرائيل تُملى ارادتها على الجانب الفلسطينى، خصوصاً أن أحد عيوب اتفاق أوسلو هو أنه ترك كثيراً من المسائل قابلة للتفسير بشكل أو بآخر وهذا أتاح لإسرائيل أن تفرض وجهة نظرها باستمرار.

على خلفية هذا الوضع بدأ إخواننا فى حماس ممارسة أعمالهم المسلحة. أنا أقول نحن ضد هذه العمليات لأكثر من سبب..

أولا: لطبيعتها غير الانسانية التى جعلتها محل انتقاد من العالم كله.

ثانيا: لانها لاتدفع بقضيتنا إلى الأمام، وتقدم الذرائع لإسرائيل لتمعن فى عقوباتها الجماعية ضدنا، ولذلك أنا غير راض عن ذلك، كما لاأرضى أن ينفرد أى جانب فلسطينى بالقرار وحده، لأن النتيجة أن إسرائيل اتخذتها كذريعة وفرضت رأيها على السلطة الفلسطينية.

قلت للدكتور حيدر عبد الشافى: ألا تدعو السلطة الفلسطينية لاتخاذ موقف ما إزاء ما يحدث؟.

فقال: لايجب أن نقول مثلما يقول الآخرون فى إسرائيل وأمريكا أن هدف حماس هو تقويض عملية السلام، لأن عملية السلام مقوضة من الأصل وفاقدة لمصداقيتها بسبب إسرائيل. لذلك إذا كنت أدعو السلطة الفلسطينية إلى إدانه هذه الاعمال المسلحة فيجب أن نقول فى نفس الوقت أن إسرائيل تتحمل مسئولية كبيرة من وراء هذه الاعمال لأنها تعطى السبب للفلسطينيين جميعا ـ وليس حماس فقط ـ للدفاع عن انفسهم ضد الاحتلال. ومن حق الانسان المحتل أن يلجأ

إلى كل الوسائل لمقاومة الاحتلال بما فـيها الكفاح المسلح المشروع ولكن ليس بهذا الطابع اللا انسانى ويبقى أنه من حق الشعب الفلسطينى اللجوء للعمل المسلح. إن إسرائيل ترفض حتى الآن الاعتراف بحق تقرير المصير وقيام دولة فلسطين المستقلة التى عاصمتها القدس وحقوق اللاجئين كما نصت عليها قرارات الامم المتحدة.

ـ قلت للدكـتور حـيدر عـبد الشـافى: أنا حتى الآن لا أعـرف على وجه الـدقة هدف حركـة حماس من العمليات الانتحارية، البـعض يقول انه تقويض عـملية السـلام، لكن ذلك مردود عليـه كمـا تفضلت، والبـعض يميل إلى أن الهـدف هو ضرب السلطة الوطنية الفلسطينية وفرض أنفسـهم كبديل، والبعض يبسط الأمور زاعماً أنها مجرد عمليات للفت النظر وليس أكثـر. أعتقد أن لديكم تفسيراً مغايراً لكل ذلك.

ـ ويذهب الدكتور حيدر للرد على مكالمة هاتفية طالت قليلاً لدرجة أننى ظننت أنه ـ لكبر سنة ـ سوف يطلب منى تذكيره بـالسؤال لكن الرجل «الثمانينى» بمجرد أن اعتـدل فى جلسته قال لى: أعـتقد أن فلسـفة حماس هى تحـرير الأرض كاملة، معنى هذا أنـها لاتعتـرف بإسرائيل. إذن السـلام العادل من وجهـة نظرهم ينطوى على تحرير التراب الكامل، وأنا أرى أن السلام العادل هو حق الفلسطينيين فى قيام دولتهم المستـقلة كباقى الشعوب فى اطار قرارات المجلس الوطنى التى قـبلت مبدأ قيام الدولتين، هذا هو الفرق بينى وبين حماس. وأنا لاأتهم حماس بأى تهم ليس لها أساس من المنطق أو الحقيقـة ولا أستطيع أن اصدق أن ايران تمول حماس، ولا أستطيع أيضا أن أرفض ذلك.

ـ دكتور حيـدر.. لقد فهمت من كلامك ـ وأرجو أن تصـحح لى إن كان الأمر قد التبس على ـ إن إسرائيل لاتريد سلاماً حقيقياً، أليس كذلك؟.

ـ أجابنى الدكتور حيدر: نعم وبكل تأكيد هى تريد سلاماً بشروطها هى، وليس على شروط الحق والعدل، والسلام لايمكن أن يستمر إلا على أساس الحق والعدل.

ـ قلت للهرم الفلسطينى: انت تقول أنك موافق على مبدأ قيام الدولتين الذى أقره المجلس الوطنى. حسنا. الوضع الآن فى إسرائيل.. وأنا قادم من تل أبيب.. أنهم لايريدون سلاماً بقدر مايريدون أمنا شخصياً، ولأن الأمن الشخصى لم يتحقق تم فرض الطوق الأمنى والتجويع الجماعى. على الجانب الفلسطينى الجميع متفق على هدف واحد ـ رغم اختلاف الوسائل ـ وهو ضرورة قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس. فهل من الممكن أن تلتقى رغبة الشارع هناك مع رغبة الشارع هنا؟.

ـ يطلب الدكتور حيدر مزيداً من القهوة قبل أن يقول لى: المسألة ـ يابنى ـ تكمن فى الموقف الإسرائيلى. فكما هو واضح إسرائيل تثير دائما قضية الأمن. ومع الاسف هى تثير عواطف العالم والناس باثارتها لهذه القضية. فالناس تعتبر أن من حق الناس كلهم أن يتمتعوا بالأمن. إسرائيل ـ إذن ـ تثير نقطة حساسة خاصة وأن أوروبا وبسبب ما حدث لليهود فيها أصبحت أكثر حساسية لذلك، ونحن لسنا ضد الأمن، ولكن الأمن المرهون بالعدل والإنصاف فلا تستطيع إسرائيل أن تطالب بالأمن والأرض معاً كما تفعل، لابد أن تختار، إما الأمن أو الأرض. وطالما تستغل قوتها لسلب الارض الفلسطينية وإنكار حق الفلسطينيين فى وطنهم وفى أرضهم فلا يمكن أن تتمتع بالأمن ولايجوز أن تطالب بالأمن، لكن إذا تخلت عن نهجها العدوانى فلن يعتدى الفلسطينيون على أمنها.

ـ هل أنا محق ـ يادكتور حيدر ـ أن أعقب على كلامك بأن السلطة الفلسطينية

بهذا الشكل مجرد مقاول من الباطن استخدمته إسرائيل لتنظيم مناطق الحكم الذاتي إدارياً؟.

ـ فقال: مع الاسف إسرائيل جعلتها على هذه الصورة تفعل ماتريده إسرائيل وليس ما يريده الشعب الفلسطيني، تصور أن إسرائيل لم تكتف بالطوق الأمني بل فرضت حصاراً بحرياً ومنعت الصيادين الغلابة من الصيد ويعلم الله إلى متى يستمر ذلك، وبأي حق يفرضون هذا الحصار، إنه حط من شأن السلطة الفلسطينية فكيف يتكلمون عن دولة مستقلة وهناك طرق في غزة ممنوع على الفلسطينين السير فيها.

ـ إذا كانت يد السلطة الفلسطينية مغلولة بهذا الشكل، فما معنى وجود المجلس التشريعي الفلسطيني، وأي دور يمكن أن يقوم به هذا المجلس. التساؤل خطر لي ولم أخجل من طرحه على الدكتور حيدر عضو المجلس التشريعي.

ـ لكن الرجل لم يغضب للطرح.. بل قال لي: يجب أن نعمل جميعاً لكي يكون لهذا المجلس دور فاعل، فهذا المجلس حملته الجماهير الفلسطينية أمانة الدفاع عن مصيرها ومصالحها وعن كل حقوقها، نحن نحمل أمانة ولابد أن نعمل.

ـ عفوا دكتور حيدر أنت لم تجبني، بل زدت الصورة الفلسطينية قتامة مما يجعلني أتساءل: ألا توجد بقعة ضوء واحدة؟!.

ـ يقول الدكتور عبد الشافي: بقعة الضوء هي رهن بإرادتنا كفلسطينين. إذا أردنا أن نعمل من خلال هذا المجلس بصدق وإخلاص فقد تُضيئ الصورة بعض الشئ، فواقع الحال الذي نحن فيه يقول أن إسرائيل قوية ومعتدية وليس لها قبل بقدرتها العسكرية والعالم يقف موقف المتفرج واللامبالي ويقيم مع هذه الدولة

المعتـدية علاقـات طبيعـية بل عـلاقات مسـاندة. فنحن فى موقف حـرج، وكل ما نستطيـع أن نفعله أن نصمـد على الأرض التى نحن فيـها ولانخـرج، ونحاول من خلال امكاناتنا المحدودة مواصلة الصمود النابض بالحياة.

ـ دكتورحيدر نحن الآن نجلس فى بقعة من الأرض محاصرة، وأنا أعلم أن أهل غزة قادرون على الصمود، لكننى أعلم أيضا أنهم بشـر، والبشر طاقاتهم محدودة، فإذا كان هذا الحصار الإسـرائيلى عقاباً جماعياً فـإلى متى.. ومتى يرفع؟ وإذا كان ورقة ضغط.. فعلى من.. ولماذا؟.

يعود الدكـتور حيـدر إلى أسلوب التنويع على نغـمة واحدة قـائلاً: الحقيـقة أن الأمور تزداد سوءاً يوماً بعد اليوم، والسلطـة الفلسطينية بانفعالها ترتكب المزيد من الأخطاء، وأنا أفهم أنهم يلاحقون عناصر من حماس ويقبضون عليهم على اعتبار أن هذا يندرج تحت بند الحـفـاظ على الأمن وتطبـيق القانون، ولـكن ما هو المبـرر لإغلاق مـؤسسات حمـاس المدنية التى تخدم الجـمهور مثل العـيادات والمدارس، وهذا عمل مناقض لـلقانون وحقـوق الانسان، إسرائيل نفـسها لـم تقـدم على مثل ذلك. هذه سلبـيـات نريد أن نتـصـدى لهـا ليس بروح الخـلاف ولكن بروح الحق والعـدل والقانون، إن الشـارع الفلسطينى اليـوم فى حيـرة من أمره إزاء مـا فعلتـه حـماس، فـفى قرارة نـفس أى فلسطينى يبارك هذا العمل على اعـتبار انه عـمل مشروع ضد المحتل الذى لايريد اعطاءنا حـقوقنا، وفى الوقت نفسه يعانى المواطن من الطوق الامنى الذى تطبقه إسرائيل بقسوة واضعة الجميع فى سلة حماس.

ـ بودى أن أعرف منك قبل أن أنصرف: هل تطلق على عمليات حماس جهاداً أم إرهابا؟.

ـ كان هذا هو السـؤال الأخير للدكـتورحيـدر عبد الشافـى، لكن الطبيب الذى

عركته السياسة راوغنى وقال: أنا لا أريد أن أنصب نفسى محامياً عن حماس، كما أن كل أفكارى معلنه وليس عندى ما أخفيه، وعمل حماس يكتسب صفته كعمل مضاد للاحتلال ومن حق أى شخص يعانى من الاحتلال مقاومة المحتل، لكننى كما قلت لا أرضى عن طبيعة هذا العمل.

آن لى الآن إغلاق جهاز تسجيلى والانصراف من البيت الذى لم يهجره صاحبه ليناضل بحنجرته من مكان آخر بعيدا عن الوطن.

وحين اشترطت إسرائيل أن يكون رئيس الوفد الفلسطينى فى مفاوضات واشنطن من فلسطينى الداخل.. ظنت أنهم سيكونون لقمة سائغة للمفاوضين الإسرائيليين الذين يأخذون ولايعطون ومن أول جلسة يحضرها حيدر عبد الشافى أدركوا أنهم أخطاؤا فى تقدير حساباتهم، وحين حاولوا تصحيح الخطأ حصلوا من مناضلى الخارج ما لم يقبل حيدر عبد الشافى مجرد الخوض فيه.

خرجت من هذا البيت أرى أمامى المستقبل قاتماً وزاد يقينى بأن كعكة السلام ليست للأكل ولكن للعرض فى فاترينه محل الحلوانى الإسرائيلى، لم يكن فيها دقيق ولا سمن ولا سكر ولا كريمه، كان كل ما فيها «بلاستيك» يذوب تحت حرارة شمس الحقيقة المرة التى نعرفها ونتوارى منها وكأننا اتفقنا أن نمارس أدوارنا فى مسرحية السلام لا لكى نوصل رسالة إلى العالم، ولكن لأننا فقدنا الثقة فى أننا نستيطيع تحريك «الوزير» من مكانه لنقول لأمريكا وإسرائيل «كش ملك».

الفصل التاسع

اعدام مليون زهرة!

****لقد عاش الإسرائيليين ٥٠ سنة فى هذا الخوف، وسيعيشون مثلها إذا ظلت أفكارهم كما هى، ولن يهنأ لهم بال حتى لو وضعوا جنديا إسرائيليا خلف كل مواطن فلسطينى!****

هل هناك علاقة بين مدينة غزة التى أسير الآن فى دروبها وبين مدينة دمياط التى هاجرت إليها وعائلتى مع بدء حرب الاستنزاف؟

نعم هناك علاقة: إسرائيل!

إسرائيل هى التى تسببت فى فرض نوع من الحصار علينا فى دمياط، وها أنا محاصر مع أهل غزة داخل الطوق الأمنى الذى فرضته إسرائيل.

فى دمياط حرمت على أمى مصروف الجيب وتذوق طعم اللحم إلا قليلاً، كانت النقود التى يرسلها أبى الصامد فى بورسعيد تكفى بالكاد لإطعامنا بأشياء ليس بينها اللحمة. حرمتنى إسرائيل ـ وأنا فى دمياط ـ من دخول السينما لأنها أصبحت ترفاً، ومن شراء روايات نجيب محفوظ، ومن اقتناء حذاء كاوتش ألعب به الكرة مع أقرانى فى الشارع.

وفى غزة شربت كوب الشاى بنصف ملعقة سكر، ليس من أجل الريجيم، ولكن بسبب شحه. فى غزة أكلت رغيفاً واحداً يومياً لأن الدقيق أوشك على النفاد. فى غزة سرت على الكورنيش البائس ورددت نفس الأغنية التى كنت أرددها على كورنيش دمياط: «عدى النهار.. والمغربيه جايه.. تتخفى ورا ضل الشجر. وعشان نتوه فى السكه.. شالوا من ليالينا القمر، وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها.. جاها نهار ما قدرش يدفع مهرها».

كان عبد الحليم حافظ يغرقنا بهذا المقطع «الأبنودى» فى جو الحزن والكآبة والنكسة.. قبل أن ينتشلنا بأطواق النجاه حين يقول: «أبدا بلدنا للنهار.. بتحب موال النهار».

لكننى.. ولشئ خارج عن إرادتى لم أستطع ترديد هذه الجملة الأخيرة وأنا أسير على كورنيش غزة، هل لأننا كنا فى الليل، أم لأن شمس النهار تبدو بعيدة عن هذه البقعة المظلمة.. التى تزيد إظلاماً كلما قابلت شخصية فلسطينية جديدة!.

حتى مروان كنفانى المتحدث بإسم الرئيس عرفات رغم البدلة الإيطالية الفاخرة التى يرتديها.. ورغم العطر الباريسى الذى يفوح منه.. ورغم السيارة الألمانية التى تنتظره بالخارج، لم تفلح كل هذه «الكماليات» فى إخفاء الانكسار فى نظرة عينيه، والوهن فى نبرة صوته، واليأس وهو يرنو إلى الغد، والرعشة التى تكبل قبضة يده وهو يضرب بها على مكتبه مردداً: إسرائيل لاتريد السلام.. إسرائيل لاتريد السلام.

لابد أن أبحث عن شخصية هنا «تلطخ» هذه اللوحة السوداء، بنقطة بيضاء عليها تتمدد فوق هذا السواد لتضئ جزءاً منه.

وهكذا قررت أن أذهب إلى السفير محمود كريم ممثل مصر لدى السلطة الوطنية الفلسطينية، وعلى عكس سفيرنا فى تل أبيب، الناس هنا ـ فى غزة ـ لايحبون السفير كريم كثيراً لسبب ليس له علاقة به، فأكثر من ٨٠٪ من شباب غزة يريدون الحصول على تأشيرات دخول لمصر، لكن الرجل ينفذ التعليمات ولايمنح التأشيرة إلا للمرضى الذين يعالجون بمصر.

ومحمود كريم كان يشغل منصب مدير إدارة فلسطين بوزارة الخارجية المصرية قبل أن يصبح سفيراً فى غزة، ولذلك فهو يحفظ دهاليز القضية ولا يضل الطريق فى ذلك «التيه» أبدا!.

حينما حادثته من فندق الأمل طلبا لموعد، شعرت فى صوته بحنان الأب، وجدعنة أولاد البلد التى اختفت إلا من روايات نجيب محفوظ، قال لى: تعال لى حالاً.. هل أرسل لك سيارتى؟.

شكرته وطلبت منه العنوان فقال لى: على نفس الرصيف المقابل للفندق الذى تحدثنى منه، فقط ستسير خمس دقائق فى الاتجاه المعاكس للبحر، وبعدها ستجد علم بلدك أمامك.

طفرت دمعة من عينى وهو يقول لى «علم بلدك» وكأنه سألنى ساعتها: «ألم تفتقد مصر.. ألا تشعر بالحنين اليها»؟.

خمسة أيام وأنا بعيد عن الوطن. الساعة التى تفصل ما بينى وبينه كأنها دهر وعزائى الوحيد اننى الآن فى غزة وليس فى تل أبيب.

وها هو علم مصر كما وصفه لى السفير محمود كريم.. يرفرف فوق مبنى صغير مكون من دورين، ليس هناك حراسة على بابه.. ولايوجد موظف أمن يسألك بجلافة: «رايح فين؟». فى الصالة الخارجية يجلس سبعة فلسطينيين كبار السن فهمت من حوارهم مع أحد موظفى السفارة أنهم يريدون العلاج فى القاهرة.

وحين أدخلنا ذلك الموظف إلى مكتب السفير اعتذر لنا لأننا سننتظر قليلاً لحين انتهاء السفير من صلاة الظهر. وبعد خمس دقائق فتح الباب ودخل منه الرجل مرحباً ومعانقاً وكأنه يعرفنا منذ زمن بعيد، وعاتبنى بشدة بعد أن علم أننى وصلت غزة منذ يومين وقال أننى كان يجب على أن أمر على بيتى أولاً، فقلت له: بعد ما حدث لى فى سفارتنا بتل أبيب قررت أن أعتمد على نفسى ولا أضايق أحداً بوجودى، ولم يسألنى الرجل عن تفاصيل ما حدث هناك واكتفى بقوله: انت إذن لم تسمع عن محمود كريم، على العموم أتمنى أن تكون رحلتك موفقة صحفياً، أعلم انها صدمتك وهذا واضح على ملامحك.. ولكن اعتقد أن هذا سيفيدك صحفياً.. إلا إذا كنت قد جئت من أجل السياحة، ثم ضحك طويلاً محطماً ذلك الحاجز الذى يلازم أول لقاء. الآن أشعر أن هذا هو اللقاء المائة مع هذا الرجل الطيب العفوى الذى اعتبرنا من أهل بيته وقال: اسمعوا.. أنا هنا وحيد ونفسى فى أكله سمك على البحر و.. وكاد ينسينى ما جئت اليه من أجله حتى دق جرس الهاتف بجواره ليقول لنا بعد انتهاء المكاملة: هناك اجتماع مع الرئيس عرفات بعد

ساعـتين، الأمور تزداد تعـقيداً، فـانتبهت إلى مـهمتى وقلت لـه: وهل كنت تتوقع وأنت الخبير بشئون فلسطين أن يطول شهر العسل؟.

فقـال الرجل: بالطبع لا، ولكن الذى لم أتوقـعه هو الإجـراءات الشرسـة التى اتخذتهـا إسرائيل فى أعقـاب عمليات حمـاس، وللأسف لم يركز عليهـا الاعلام المصرى وفضل التـركيز على ردود الفعل العـالمية إزاء ما فعلتـه حماس، لكن أنت رأيت على الطبيعة ما قامت به إسرائيل، إجراءات غـير مسبوقة لم تحدث حتى فى حرب الخليج، ولم تحـدث فى ظل أشد حالات الاحتلال الإسـرائيلى، وأقول لك أيضا أنهـا لم تحدث أيام الانتفاضة. لك أن تتخيل ٥٦٠ قرية فلسطينية معزولة عن بعضهـا البعض، والمدن أيضا ممنوع التحـرك بينها، والنتيجة أنـك لاتستطيع إخراج منتجـاتك ولاتستطيع إدخال مـا تحتاجـه فى قطاع غزة. هنا يتم اعـدام مليون زهرة يومياً. هذه الزهور التى تنافس الإنتاج الهولندى وكانت تذهب إلى هناك رأساً عن طريق المصدر الإسرائيلى الذى يتحكم فى كل شئ، فـهنا لايوجد مصدر فلسطينى أو مستورد فـلسطينى، كل إنتاج القطاع تأخذه إسرائيل وتتحكم فـيه وتكتب عليه صنع فى إسـرائيل وتأخذ عـمولتهـا، ومصـر للأسف لاتريد أن تقوم بـهذا الدور. مصر التى تصدر لاستراليا ما قيمته ٧ مليون دولار لها مكتبان هناك، أما قطاع غزة الذى يستورد منا مـا قـيمتـه ٦٠٠ مليـون دولار، أى أكـثـر من نصف دخل قناة السويس فليس لنا مكتب تجارى!.

ويعود السـفيـر كريم إلى الإجراءات الإسـرائيلية مـرة أخرى قائـلاً: قطاع غزة مـصدر لحـاجتـين: العمـالة التى تعـمل فى إسرائيـل والضفـة الغربيـة، والخضـار والفاكهة. وليس هناك مورد ثالث. لاتوجد سياحة.. ولا توجد صناعة.. ولا توجد تحويلات، ولك أن تعلـم حال الناس هنا، أنهم يتضـورون جوعاً، يـحصلون على رغيف الخبز بصـعوبة، كان هناك ٣٠ ألف عامل فلسطينى يذهبون كل صباح إلى

إسـرائيل.. يتـقاضى الواحـد منهم ١٥٠ شيكل ـ عـلى الاقل ـ يوميـاً، يعنى ١٥٠ جنيه. أنا متفق معك فى أنهم تدربوا على الحياة فى مثل هذه الظروف، لكن الجديد هذه المرة أن إسـرائيل منعت نـقل المرضى إلى مـسـتـشفـيـات الضـفـة والقـدس، فالمسـتشفى الوحـيد هنا لايصلح، انهـا جريمة دوليـة ترتكبهـا إسرائيل لأن هؤلاء المرضى يأخذون جرعـات ينبغى أن تكون منتظمة، ومعنى أن تمنـعهم أنها حكمت عليـهم بالاعـدام. إسـرائـيل منعت ـ أيضـا ـ دخـول الـصحف، وممـنوع على الدبلوماسـيين أن يأتوا إلى هنا، هل تصـدق أن وزير خارجيـة المانيا عـانى الأمرين حتى يأتى إلى هنا ويقابل عرفـات، أنا لا أعرف ماحدث لك فى أريز، لكننى واثق أنه عانى أكـثر منك، وأنا أرى أن هذه الإجـراءات التى اتخذتهـا إسرائيل سـتؤدى إلى عكس ما تريده.

ويتسـاءل السفير مـحمود كريم: مـاذا حدث بالنسبة للعـملية السياسـية؟ هناك ضـغط على بيـريز فى أن يوقف تـسليم الخليل وإذا اسـتـسلم لهـذا الضـغط مـاذا ستكون النتيجة؟ لـن يجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى ولن يزيل البنود التى تريد إسرائيل ازالتها، ومن ثم سندخل فى متاهات ليس لها أول ولا آخر.

ولعلك تتساءل ـ مثل الكثيرين ـ عن السبب فى الإصرار على عقد مؤتمر صناع السلام يوم الاربعاء القـادم؟ أنا أرى ـ وهذه وجهة نظرى الشخصيـة كرجل متابع للاحداث ـ أن إسرائيل كـانت تعبئ الرأى العام لتقوم بعمليـات فى المناطق التابعة للحكم الذاتـى الفلسطينى. أى فى المنطـقة «أ» التـى تضم المدن الست فى الضـفـة والجـزء الخاضع لـلحكم الذاتى من قطاع غـزة، أنت تعلم أن القطاع مـازال به ١٨ مستـوطنة تضم ٢٠٠٢ مـستـوطنا، إلى جانب وجود مـستـوطنات خاليـة يغادرها اليهود كل يوم السـاعة ٤ عصـراً ويأتون إليها فى الصـباح، هذه المستوطنات أشـبه بالسرطان الذى يشع طوال الليل عملاء وقوات مستـعربة يتحدثون العربية بطلاقه

ويدخلون بين الفلسطينيين هنا وينفذون عمليات تصفية لعناصر من حركة «الجهاد»، كل هذه الأشياء تأتى من المستوطنات الثمانى عشرة، ولكن العمليات التى كانت ستقوم بها إسرائيل كان سينفذها الجيش الإسرائيلى وليس العملاء، خاصة وأن الشعب الإسرائيلى فى حاجة إلى شئ يرفع من معنوياته، وبيريز فى حاجة إلى شئ يرفع من أسهمه فى الانتخابات القادمة.

سيادة السفير: ما معنى أن تبقى مدينة تحت الحصار..؟ وماذا سيحدث عندما تنفد كمية الأغذية التى باعتها مصر لفلسطين؟.

شوف.. كل بيت فى غزة يضع فى حساباته مثل هذه الأشياء، عندنا فى الصعيد يقولون «ياما دقت على الراس طبول» هنا يقولون المثل ولكن بطريقة عملية، لقد عاشت هذه المدينة من قبل أربعين يوماً بلياليها فى حصار كامل وحظر تجول أيام حرب الخليج، كانت إسرائيل تسمح للسيدات فقط بساعتين فى آخر النهار للحصول على احتياجاتهن من السوق، باختصار كل بيت هنا يوجد به خزين. ولكن لاأستطيع أن أقول لك إلى متى يغنيهم خزينهم، أنت رأيت طبعاً طوابير الخبز، هل تعلم أن هذه المدينة لم تعرف منذ نشأتها حكاية طوابير الخبر هذه؟ وأنا أريد بهذه المناسبة أن أقول لك ما الذى تستطيع مصر أن تفعله للفلسطينيين. طاقة منفذ رفح ٣٠٠ طن، لكن إسرائيل لاتسمح بدخول هذه الكمية وتتعمد الإعاقة لسببين، الأول هو أن تجبر الفلسطينى على الشراء من إسرائيل فقط! لقد فتح المنفذ للبضائع يوم ١ يونيه الماضى وبدأ التجار الفلسطينيون فى إحضار كل المواد التموينية مثل السكر والدقيق والزيت والارز والمنظفات الصناعية من مصر. هل تتصور أن المنظفات الصناعية يجب أن تحلل عينة منها فى المعامل المركزية فى إسرائيل قبل أن تعطيك تصريحاً بالإفراج. وبهذه الطريقة غير مسموح إلا لمنتج مصرى واحد بالدخول إلى غزة! أنا وقفت فى هذا المعبر أربعة أيام كاملة عندما

قدمت مصر هدية يوم ١٥ يونية الماضى عبارة عن مواد غذائية وأدوية الفلسطينيين. فلكى تدخل هذه المعونة لابد أن تكون الأدوية مسجلة لدى إسرائيل ومسموح بها، حتى السجائر لابد أن تكون نسبة النيكوتين بها مماثلة للنسبة المتداولة فى إسرائيل، هذا عائق كبير كما ترى، أيضا إذا أدخلت مصر رسائل دقيق تتعرض للبهدلة من طريقة الفحص والنقل الإسرائيلية.

قلت للسفير محمود كريم: أنت تتهم الاعلام المصرى بأنه لم ينقل ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين، ولنفرض أن الإعلام فعلها ونقل، فما الذى يمكن أن يحدث؟ إن العالم كله يرى العقاب الجماعى الذى تفرضه إسرائيل رغم أن الذى ارتكب الحوادث الأخيرة مجموعة أفراد ومع ذلك فالرأى العام العالمى يصدق دموع التماسيح الإسرائيلية ولا يلتفت إلى عذابات الفلسطينيين.

ويرد على السفير: العالم ـ ياصديقى ـ يخطب ود إسرائيل وهذا واضح تماماً. ومن متطلبات هذا الود ألا يتم تسليط الأضواء على ما تقوم به والذى لايقل بشاعة عن الذى فعلته حماس. لن نقول من الذى بدأ، فالمعروف أنها حماس. لكن لماذا فعلت حماس ذلك؟ لأنه كان هناك اتفاق يجب أن ينفذ لكن إسرائيل تلكأت، ولنأخذ قضية واحدة دون الخوض فى التفاصيل المعقدة للاتفاقية الفلسطينية الإسرائيلية وهى قضية المعتقلين والمعتقلات، لقد تدخل الرئيس مبارك فى هذه القضية شخصياً وقال لبيريز: نحن كعرب لا نقبل أن تبقى البنات والسيدات فى المعتقل، فيقول له بيريز: سوف نفرج عنهن يوم ٢٨ / ١. وقبل أن يضع السماعة مع الرئيس مبارك يكون قد ألقى القبض على آخرين مساوين فى العدد للذين سيفرج عنهم. كما أنه لايفرج عن المعتقلات السياسيات بل عن المجرمين والساقطات الذين لم تشملهم الاتفاقية، هذه واحدة، والثانية أن إسرائيل قامت بتصفية المهندس يحيى عياش وقتلوا ٩٠٠ فلسطينى، وهذا يعنى أن أى فرد

فى حماس أصبح غير آمن على نفسه لأن السلطة الوطنية الفلسطينية لاتحميه، المفروض أن عياش كان فى المنطقة التابعة للسلطة.. أليس كذلك؟ فما معنى أن تدخل إسرائيل وتصفيه؟ هل عندك إجابة؟ هذا هو منطق حماس.. إذا كنت لاتستطيع أن تحمينى، سأذهب أنا وأنفذ عمليات إنتحارية فى عقر دارهم طالما أن أيديهم ستصل إلى هنا. هذا هو تفكير حماس الذى توصلوا إليه عقب يقينهم بأن إسرائيل لن تفرج عن معتقليهم. إنهم يتساءلون: ماذا أخذنا من الضفة الغربية؟ ٣٠٪ فقط، وبعد أن يتم تطبيق الحل النهائى ستصبح ٦٠٪، إذن هناك ٤٠٪ ستظل فى يد إسرائيل، ومع ذلك تعاهدوا مع عرفات فى اتفاق القاهرة ألا يعوقوه فى تنفيذ الاتفاقية وظلوا عند كلمتهم حتى استفزتهم إسرائيل وقتلت عياش ومن قبله كحيل إلى جانب ٩٠٠ ألف عنصر من عناصرهم هنا، لاحظ أننى لا ابرر ما فعلوه ولكننى اقول لك كيف يفكرون.

سيادة السفير.. أنا أقول أن الشارع الإسرائيلى يكفر الآن بالسلام تماماً مثلما يكفر به الشارع الفلسطينى، مع اختلاف السبب، هناك جاء الكفر نتيجة أن السلام لم يأت لهم بالأمن، وهنا جاء نتيجة اكتشافهم أن الحكم الذاتى مجرد نكته غير مضحكة، وأن إسرائيل مازالت تحتلهم. فماذا تقول أنت؟.

أنا متفق معك فى هذا، إذاعة «البى. بى. سى» نقلت اليوم مقتطفات من الصحف الإسرائيلية تقول فيها أن الناس ليسوا آمنين عندما يركبون الأتوبيسات ولا حتى عندما يفتحون الراديو حتى لايسمعوا أن أحد اقربائهم قد مات، إنه مجتمع يعيش فى قلق وهذا هو ما يجب أن يفهموه، لقد عاشوا ٥٠ سنة فى هذا الوضع وسيعيشون مثلها إذا ظلت أفكارهم كما هى. ولن يهنأ لهم بال حتى لو وضعوا جندياً إسرائيلياً خلف كل مواطن فلسطينى، هذا لن يمنع الخطر الذى يخشونه، حاجة واحدة فقط هى التى ستمنعه.. أن تنفذ الكلام الذى اتفقت عليه..

أن تعطى للفلسطينيين حلاً سياسياً مرضيا، لا أن تعطيهم على طريقة «من البحر للنهر». فهذا الكلام انتهى منذ زمن، واليوم لو أدت الضغوط التى يعانى منها الرئيس عرفات إلى سقوطه.. من الذى سيستفيد هنا؟ انهم المتطرفون.. الليكود، وفى المقابل سيحكم فى الطرف الفلسطينى الذين نفذوا عملية «ديز نجوف». من هنا لابد لإسرائيل أن تفهم أن هناك حد معين للضغط على السلطة الفلسطينية لأنها سلطة معتدلة وتسير فى اتجاه السلام ووقعت معك اتفاقيتين وتكون النتيجة أن نضعها فى موقف حرج.. أقله أن الناس لاتجد ما تأكله، إذن أنت تهئ الاوضاع لاندلاع ثورة جياع، وتغيير السلطة الفلسطينية ليس من مصلحة أحد وأولهم إسرائيل، فما أسهل أن تندلع الانتفاضة من جديد لأن الناس يرقبون الموقف بتحفز.

إسمح لى ـ سيادة السفير ـ بالعودة إلى حماس. فمازلت حتى الآن ـ على كثرة ما سمعت ـ لا أعلم إن كان هدف حماس هو محاولة الضغط على إسرائيل للحوار معها وحدها كبديل لسلطة عرفات، أم أنهم يفعلون ذلك لأنهم ضد هذا السلام «الإسرائيلى». كما سمعت أنهم يتلقون أوامرهم وتمويلهم من إيران، ثم طفا رأى آخر يقول أنهم يلعبون لصالح الليكود ضد العمل! إنها صورة ضبابية تجعل الحكم على الامور مهمة شاقة تحتمل الفشل أكثر من النجاح.

ويقول السفير محمود كريم: لكى أكون أمينا معك ونحن نتحدث فى هذا الموضوع، لابد أن تكون كل معطيات الموقف أمامنا، أنت تستطيع أن تستنتج الاستنتاجات التى تريدها من خلال الطرح الذى طرحته عليك، لكن أنا فى تصورى أن الكلام الذى طرحته أنت يمكن أن يكون.كله ـ مع بعضه ـ صحيحا. فمن الممكن أن تكون عناصر من الخارج ضالعة فى الموضوع، من الممكن أن تكون رسالة من سوريا التى تحتضن ١٠ منظمات، إذن كل ما قلته وارد، لكن إذا أردنا أن

نرتبها تاريخياً ربما تكون كل العوامل المطروحة خاطئة، فأولاً موت الشقاقى وثانيا موت عياش مروراً بكحيلى ودبابش وعناصر كثيره من حماس والجهاد الاسلامى تعرضت للتصفية من إسرائيل، ولابد أنك قرأت المكتوب على جدران غزة. كتبوا أنهم سيجعلون العالم يرى ماذا سيفعلونه من أجل الثأر لعياش، إذن هى عملية ثأر أضيف اليها أن الناس هنا تشعر أنه لامستقبل سياسى أو اقتصادى لها، هذا إذن يعطيك تفسيراً آخر لعمليات حماس، والمعنى أن الأمور تداخلت بشكل سئ.. إسرائيل وحدها هى التى رسمته وانعكس على الفلسطينيين الذين يريدون السلام ربما أكثر من الأمن الذى يريده الإسرائيليون.

قلت لسفير مصر فى غزة: من خلال متابعتى لراديو وتليفزيون إسرائيل ولقاءاتى فى تل أبيب، واستماعى لتصريحات وزراء إسرائيليين لاحظت أنهم يتهمون السلطة الفلسطينية بالتقصير فى أداء دورها، فداخلنى يقين بأن المطلوب من السلطة الفلسطينية ـ حسب التوجه الإسرائيلى ـ هو أن تكون ذراعاً أمنية لإسرائيل فى مناطق الحكم الذاتى، فإذا ما بطشت هذه الذراع بمن يسببون الصداع لإسرائيل.. ظهرت إسرائيل أمام العالم بأنها ليس لها شأن بما يحدث بين الفلسطينيين.. وإذا امتنعت هذه الذراع عن البطش علت الأصوات الإسرائيلية تطالب بقطعها، هذا هو ما فهمته من المسئولية الإدارية والأمنية للسلطة الفلسطينية فى مناطق الحكم الذاتى، وهذه المقدمات لاتفصح عن نتائج تبشر بقيام دولة فلسطينية مستقلة.

يقول السفير: «حط نفسك مكان عرفات النهارده» الفلسطينيون لم يكن لهم وجود على الخريطة السياسية أو الجغرافية. كانوا مهددين بالنسف مثل الشعب الكردى والشعب الأرمينى أو الشعوب الأخرى الموزعة بين عدة بلاد، هل يستطيع الأرمن والأكراد المطالبة بوطن لهم الآن؟ طبعاً لا، الفلسطينيون كانوا قاب قوسين

أو أدنى من ذلك.. بداية من محاولة عمل اتحاد كونفيدرالى مع الأردن على أن يرتبوا أى وضع لغزة. لكن عرفات نجح فى أن يرفع العلم الفلسطينى على بعد ١٠ و١٥ كيلو من مقر حكومة إسرائيل. وأتصور أن تفكيره الآن هو: نحن كجيل أمضى ٥٠ عاماً فى التشرد نجحنا فى زرع الأعلام الفلسطينية هنا.. وإذا أرادت الأجيال القادمة أن تفعل المزيد فنحن لن نضع حدوداً أمامها.

عرفات إذن كان يحلم برفع العلم الفلسطينى، وعندما انتخبه الشعب الفلسطينى قالوا نعم للعملية السلمية، ونعم للسلطة الفلسطينية ولكن هناك شئ آخر قيل فى الانتخابات وهو «خللى بالكم». هذا الشئ قيل من خلال إعطاء أعلى الأصوات للدكتور حيدر عبد الشافى المعارض الأول لاتفاق أوسلو، هذا هو تصورى. أما إذا كانت حماس تريد مخاطبة إسرائيل والحوار معها كما قيل فلابد أن يكون ذلك من خلال السلطة الوطنية الفلسطينية، وهذا حق عرفات عليهم.. فلايجب أن تكون هناك سلطتان، وحماس لها أن تطرح نفسها كبديل، لكنهم لن يستطيعوا الحصول على موافقة الشعب، لأن السلطة تقول للشعب: نحن نسير فى العملية السلمية ولدينا مجلس تشريعى وهناك مكاسب نأخذها.. لكن يجب أن يعلم الجميع أنه لا أحد يحصل على ١٠٠٪ من مطالبه، وما يحدث الآن هو خذ شبراً ثم فاوض على الشبر التالى.. وهكذا حتى نصل إلى القدس، التى لن تكون ـ أبدا ـ كما زعم بيريز العاصمة الابدية والموحدة لإسرائيل.

ويحين موعد السفير مع الرئيس عرفات، ويحين ـ أيضا ـ موعد انصرافنا حتى نلتقى على العشاء، وأمضى فى طريقى إلى فندق الأمل، ومازال السؤال ماثلاً أمامى: هل تريد إسرائيل سلاماً؟.

نعم تريده، ولكن لنفسها فقط، وهذا لن يتحقق حتى قيام الساعة، وتلك هى المشكلة.

الفصل العاشر

أغنية على الممر

****«حماس» لا يمكن أن توقف نشاطها العسكرى، لأنها لو أعلنت ذلك فقدت مصداقيتها بما يعنى إنتفاء مبرر وجودها، «حماس» لن تضع السلاح طالما هناك احتلال.. وطالما هناك مستوطنات.. وطالما هناك القدس والخليل والمعتقلين****

مازالت أجواء دمياط ـ مدينة المهجر ـ تتداخل مع غزة ـ مدينة المحاصرين ـ في تناغم عاد بي إلى عام ١٩٧٢. كانت حالة اللاحرب واللاسلم التي تهيمن على المنطقة، تتضافر مع حاله اللاجوع واللاشبع التي تخيم على أسر المهجرين في دمياط ورأس البر. كل شعب مصر كان يريد أن يخرج من تلك الحالة، لكن رغبة شعب بورسعيد في خوض الحرب كانت شيئا آخر، فهل كنا نريد النصر أم كنا نريد مجرد العودة إلى بيوتنا في بورسعيد وبورفؤاد؟ هل كنا نريد إلحاق الهزيمة بإسرائيل وطردها من سيناء، أم كنا نحلم بأن ينال المقاتل المصرى فرصة حقيقية للتعبير عن غضبه؟.

كنت أسير وحدى على كورنيش دمياط مثلما أسير الآن على كورنيش غزة، حين لمحت زحاماً حول عربة حنطور وكاميرا تصوير سينمائى. دفعنى فضولى إلى التسلل وسط الزحام حتى أمسكت الحنطور بيدى. كان يجلس بداخلها الممثل صلاح السعدنى وهو يرتدى زى الجندى المصرى بلونه الكاكى الذى يرتديه خالى العربى وكانت إلى جواره الممثلة هالة فاخر وممثلة أخرى كومبارس لم أهتم بمعرفة اسمها، تجرأت وسألت صلاح السعدنى عن اسم الفيلم الذى يصورونه فقال لى «أغنية على الممر». فصاح رجل دمياطى كان يقف خلفى: «هو ده وقت أغانى يا استاذ صلاح.. عايزين نخلص».

وحين لمحت تجاوباً من صلاح السعدنى فى الحديث سألته سؤالاً آخر: وما علاقة الأغانى بلبس الجيش الذى ترتديه؟. ويبدو أن السؤال أعجبه فشدنى من يدى كى اجلس إلى جواره فى العربة الحنطور وأعطانى ساندوتش فول فرحت به كثيراً، ليس لأننى كنت جوعاناً، ولكن لانه خصنى به دوناً عن الجمع الذى يحيط بموقع التصوير. سألنى صلاح السعدنى: «أنت فى سنة إيه؟».

ـ فى ثانية إعدادى

ـ كويس جداً.. هل سمعت عن ممر متلا؟

ـ نعم.. انه أحد الممرات الثلاثة فى قلب سيناء كما حكى لى خالى.

ـ جميل أوى، نحن فى هذا الفيلم نمثل مجموعة من جنود مصر فى ٦٧ يقودهم الشاويش محمود مرسى، رفضوا أن يتخلوا عن حراسة هذا الممر حتى يعطوا الفرصة لزملائهم فى الانسحاب دون أن تلحق بهم قوات العدو لتدمرهم. وظللنا نتساقط واحداً وراء الآخر حتى سقط الممر ولكن على جثثنا.. وبعد أن نجا زملاؤنا.

ـ تقصد حضرتك بعد أن انسحب زملاءكم

ـ انت باين عليك غلباوى، عموما عندما تشاهد الفيلم ستعرف أن الجندى المصرى لم يحارب فى ٦٧ حتى نقول أنه انهزم، الجندى المصرى لم يمنحه قادته فرصة للتعبير عن ذاته، وهذا الفيلم يؤكد أن النكسة كان بها بعض البطولات التى يجب أن تسجل.

ـ اعذرنى يا أستاذ صلاح.. سأنشر هذا الحوار فى مجلة المدرسة.. ولكنك نسيت أن تقول لى شيئين: الاول ما هى الأغنية التى كنتم ترددونها على الممر.. والثانى ما علاقة التصوير فى دمياط بالحرب والانسحاب من سيناء؟.

ـ واضح انك ستصبح صحفياً كبيراً مثل أخى محمود السعدنى.. هل سمعت عنه؟.

ـ طبعاً.. أنا أقرأ له.. أو كنت أقرأ له فى مجلة صباح الخير لكنه لم يعد يكتب.

ـ انه يعيش خارج مصر، وله إبن مثلك اسمه أكرم يعشق الصحافة أيضا، والآن

أعود إلى سؤالك، فمن بين الابطال المشاركين معى فى الفيلم الفنان أحمد مرعى. إنه جندى فنان يجيد الكتابة والتلحين، كتب لنا أغنية كنا نرددها ليزداد تشبثنا بالممر تقول كلاماً جميلاً ينتهى بعبارة: «أنزف.. أموت وتعيشى يا ضحكة مصر». وهذه العبارة تلخص الفيلم، والآن توكل على الله لأن الاستاذ على عبد الخالق المخرج يشير ببدء التصوير.

ـ وحكاية دمياط؟

ـ ياسيدى أنا جندى دمياطى اسمه مسعد أبو المعاطى، والمفروض أن اجازتى انتهت وأنا متوجه الآن مع أمى وخطيبتى إلى محطة السكة الحديد قبل حرب ٦٧ بأيام.

ما حدث من أبطال أغنية على الممر لا يختلف كثيراً عما حدث هنا فى مخيم «جباليا» داخل قطاع غزة الذى سأكون فى أحضانه بعد قليل، فهناك يسكن عماد الفالوجى الشاب «الحماسى» الذى دخل انتخابات المجلس التشريعى الفلسطينى على قائمة منظمة التحرير الفلسطينية ونجح، هو الآن ـ على الورق ـ لا ينتمى لحماس التى قاطعت الإنتخابات، لكن كل الفلسطينيين هنا يؤكدون أنه أحد أهم أذرع وعقول حماس فى غزة.. وربما لجأ إلى منظمة التحرير كخطوة تكتيكية كالتى فعلها الجيش المصرى بانسحابه فى ٦٧.

على كل حال لابد أن ألتقى مع هذا الشاب الذى يحرس «الممر» ما بين حماس والمنظمة، ولابد أن أتصل بالشاب ماجد حتى يحملنى بسيارته إلى جباليا.

ـ عندما قلت لماجد عن وجهتى سألنى على الفور: هل تقابل الفالوجى؟

ـ كيف عرفت؟

ـ إنه علامة مميزة من علامات چباليا.. وهو لغز كبير أيضاً، وانت صحفى ولابد أن مهمتك لن تكتمل إلا به.

ـ حدثنى ـ يا ماجد ـ عن چباليا وناس چباليا.

ـ لن تكفى المسافة لكى أقول لك كل شئ، ولكننى أستطيع أن أقول لك أن ما حدث من أطفال وشباب ورجال ونساء چباليا هو الذى جعل إسرائيل تعجل بالبحث عن مخرج لها من غزة. كانوا يصطادون العساكر اليهود من فوق أسطح المنازل دون أن تطالهم يد الجنود، وكانوا يضعون المتاريس بين شوارع چباليا الضيقة حتى لا يتمكن الإسرائيليون من الصعود إليهم فوق الأسطح، لقد خسرت إسرائيل كثيراً فى مخيم چباليا لدرجة أن وزير المالية الإسرائيلى قال منذ ثلاثة أيام فى التليفزيون الإسرائيلى رداً على من يطالبون بإلغاء اتفاقية أوسلو: هل تريدون العودة مرة أخرى إلى أسطح چباليا؟ لايمكن أن يحدث ذلك.

هذه هى چباليا، شوارعها معتمه ليس بها عمود إنارة واحد.. أليست مخيماً للفدائيين، لم يكن ماجد يعرف أين منزل عماد الفالوجى فسأل طفلاً صغيراً على أول الشارع فدله على الفور وهو يستنكر كيف لايعرف هذا الفلسطينى منزل عماد؟!.

منزل فلسطينى متواضع، لكنه فى غاية النظافة والنظام، استقبلنى عماد فى غرفة كبيرة تضم عدداً من المقاعد الدافئة التى تؤكد أنها لاتخلو عادة من الجالسين.

لسبب لم أعرفه، لم يشعرنى استقباله لى بأننى ضيف مرغوب فيه، وربما كان يفضل الاستمرار فى جلسته مع هؤلاء الشباب التى قطعتها بوصولى، ورغم أن اللحية والشارب والنظارة الطبية تعطى الانسان عمراً أكبر من عمره، إلا اننى قدرت أن عماد دون الخامسة والثلاثين.. وأن هذا التجهم على وجهه ربما يكون

مصطنعاً كى أعطيه عمراً أكبر من عمره، على كل الأحوال السنة هنا تساوى عشراً والكل هنا ما بين شاب أوكهل، فهذه الأرض لاتعرف معنى الطفولة!.

كان يجب على أن أتحسس مدخلى إلى هذا الشاب حتى أسبر غوره واكشف مكنوناته فقلت له: جلست مع كثيرين قبلك وربما تكون آخر من أستمع اليه فى غزة. كل من سبقوك أكدوا لى الفكرة التى أستنتجتها بنفسى، وهى أن الحكم الذاتى مجرد أكذوبة وأن غزة مازالت تحت الاحتلال، وأن أعلام فلسطين المرفوعة ليست سوى لعبة ضحكت علينا إسرائيل بها، لم أتحدث مع أحد المنتمين لحماس فأنت الوحيد منهم خارج السجن. ومن غير الطبيعى أن أغادر غزة دون أن أعرف منك كيف ترى الصورة حاضراً ومستقبلاً؟.

فقال المهندس عماد الفالوجى: أرجو أن تسمح لى أولاً بأن أقول أننى هنا لا أتحدث باسم حماس كحركة ولكنى أتحدث باسم حماس كفكرة داعية إلى قيام دولتنا المستقلة ذات السيادة وعاصمتها القدس، أما عن الصورة فهى أن الاخ عرفات اجتهد فى تحقيق السلام، وقبل بأن يغامر هذه المغامرة، ومنذ البداية توقعنا أنه لن ينجح بمغامرته فى تحقيق الحلم الفلسطينى، لكنه هو الذى أصر على أن هذه هى بداية تحقيق الحلم بتكوين الدولة الفلسطينية، وساق تبريراته المعهودة التى يكررها فى كل مرة. نحن كنا ندرك أن هم إسرائيل الوحيد هو الأمن.. والأمن فقط. ولو استطاعت أن تحقق هذا الامن بدون السلام لفعلت لكن قدر الله أن السلام كان الطريق لتحقيق الأمن المرجو لها، إسرائيل تريد تحقيق الأمن الداخلى فقط ولكن كيف؟ بتحييد منظمة التحرير الفلسطينية، أكبر فصيل فلسطينى من خلال اوسلو التى لاتقل خطورة عن كامب ديفيد يوم نجحت إسرائيل فى تحييد مصر وإخراجها من الصراع العربى الإسرائيلى.. وهذه كانت خسارة عظمى،

وظنت إسرائيل أن اتفاقاً بهذا الشكل سوف يحقق الأمن الإسرائيلى. لكن حماس حاولت أن توصل رسالة بأن هذه الاتفاقية لن تعطى لإسرائيل هدفها. وخلال اتفاق غزة وأريحا كانت المعارضة الفلسطينية تتمتع بوضع قوى ولكن بعد دخول السلطة الضفة الغربية كانت خطوة ايجابية لصالح عرفات. لقد كنا نراهن فى السابق بأن إسرائيل لن تغامر بالسماح لعرفات بالدخول للضفة الغربية لكنها غامرت وامتد حكم السلطة إلى الضفة، واقترب الفلسطينى من القدس لكن إسرائيل كان لها حسابات أخرى، فهى لاتريد للسلام أن ينتهى بدولة فلسطينية مستقلة، فقامت بخطوات استفزازية للمفاوض الفلسطينى وجعلته فى حرج امام شعبه، الخليل مثلاً أصبحت شماعة لدرجة أن رئيس دولة إسرائيل صرح بأن الخليل أقدس عندهم من القدس، ووضع الخليل أعقد من القدس، ثم بعد ذلك وضع بيت لحم وقبة رحيل وتوسيع المستوطنة هناك. إذن إسرائيل حريصة على إشغال الفلسطينى ووضعه دائما فى أزمة ولا تريد أن ترى الفلسطينين جميعاً على اتفاق، فقامت بقتل عياش.. اشهر القيادات العسكرية لحماس، وبطبيعة الحال لايمكن لحماس أن تصمت إزاء ذلك. وبالفعل تناسى الجميع بيت لحم وصار الحديث هو كيف نخرج من الأزمة التى سببتها حماس، وأصبح أكبر إنجاز هو الخروج من الازمة، واستمر الاستفزاز المتبادل بين إسرائيل وحماس فارتبك الوضع العام. الآن إسرائيل جندت الرأى العام لصالحها كصاحبة المبادرات السلمية وكضحية للإرهاب، وقام العالم بترتيب مؤتمر دولى لمساندتها فى شرم الشيخ، هذا هو الشكل الظاهرى للوضع لكن المسألة أعقد من ذلك بكثير، لأن هناك قوى أخرى دخلت فى اللعبة. هناك قوى لم يرق لها أن ترى عرفات يصل إلى الضفة الغربية، وهناك قوى لم يرق لها أن ترى عملية السلام تمر بهدوء، وهناك قوى لايروق لها أن ترى عرفات يتفق مع حماس وفى خضم هذا المحيط

يصير الوضع الفلسطيني حرجاً.

ـ بعيداً عن هذا المؤتمر الدولى. أريد أن أعرف منك ماذا تسمى ما تقوم به حماس.. إرهاب أم جهاد؟

يقول عماد الفالوجي: هنا تختلف المسميات. فى المنظور الإسرائيلى هو إرهاب، وفى المنظور الحقيقى إسرائيل تتحمل مسئولية كبيرة عن العنف والعنف المتبادل. لقد حضرت اتفاق القاهرة بين حماس والسلطة الفلسطينية، وهناك تعهدت حماس بألا تقوم بأى عمل من شأنه إحراج السلطة الفلسطينية، وهذا يعنى ـ من طرف خفي ـ وقف العمل العسكرى، لكن حماس لايمكن أن توقف العمل العسكرى لأنها لوا أعلنت ذلك فقد فقدت مصداقيتها بما يعنى انتفاء مبرر وجودها، حماس لن تضع السلاح طالما أن هناك احتلال وطالما أن هناك مستوطنات وطالما أن هناك القدس والخليل والمعتقلين. باختصار حماس لاتستطيع إيقاف نشاطها العسكرى لتبدأ نشاطاً سياسياً. ومن هنا صيغ اتفاق القاهرة بحرفية شديدة لكى يحفظ لحماس ماء وجهها، كان هذا مفهوم كل المحللين، وفعلاً هدأت حماس لمدة سبعة شهور دون عمل عسكرى واحد، ولأول مرة يمر شهر رمضان على هذا البلد بهدوء، لقد كانت إسرائيل تستعد لهذا الشهر قبله بأشهر، لكنه مر بسلام فى اشارة واضحة أن حماس احترمت وعدها. لكن مقتل عياش قضى على هذه الهدنة، فنقضت حماس الاتفاق. نعم السلطة ليس لها دخل فى مقتل عياش، لكن الاتفاق مع السلطة يخدم إسرائيل، لأن هناك قاعدة معروفة: هناك أمن فلسطيني.. هناك اتفاق فلسطيني فلسطيني، يساوى أمن إسرائيل.

وأنا أرى أن إسرائيل هى التى تقرر ماذا تريد وليس حماس. فهل تريد إسرائيل السلام أم العنف؟ حماس قبلت بالسلام وقبلت بمعاهدة، لكن إسرائيل هى التى

لاتريد إعطاءنا شرق القدس وفك المستوطنات والإفراج عن المعتقلين لتقوم دولة مستقلة فلسطينية باستفتاء شعبى، هذه المبادرة طرحتها حماس فى ١٩٩٣. هذا يعنى أن حماس تستطيع الاستجابة للمتطلبات الأمنية الإسرائيلية، لكن ما يحدث الآن أن حماس تسمى ما حدث مع إسرائيل هدنه.. وعرفات يسميها سلاماً.

لكن الواقع يؤكد أنها ليست معاهدة سلام على الإطلاق. فكما قلت لك أن هدف إسرائيل الأول والأخير هو الأمن، لقد كانت هناك فرصة تاريخية لإسرائيل لإحلال السلام، لأن هذه هى أول مرة فى تاريخ القضية الفلسطينية تتفق منظمة التحرير وأغلب الفصائل الفلسطينية الأخرى وبالذات الحركة الاسلامية، الكل كان مستعداً للاعتراف بإسرائيل كواقع بشرط أن تعترف إسرائيل بحقنا فى القدس، على مر التاريخ لم يكن هذا الموقف موجوداً وأنا أقول إذا لم تستغل إسرائيل هذه الفرصة فقد لاتتكرر، ياسر عرفات قادر على ضبط العلاقة مع حماس لتحقيق الأمن الإسرائيلى، خاصة وأن حماس وافقت على أن تفاوض إسرائيل عبر السلطة الفلسطينية بشرط نجاح السلطة فى تطبيق شروط حماس، إننا لايمكننا القبول بأن تأخذ إسرائيل الأمن والاستقرار والأرض، مستحيل أن يحدث ذلك.

قلت للمهندس عماد: وهل تقاعست السلطة الوطنية عن تنفيذ شروط حماس؟.

فقال: السلطة تحاول، ولكن إسرائيل هى التى ترفض إعطاء عرفات القوة اللازمة. المشكلة ان المفاوض الفلسطينى يحاول أن يقنع إسرائيل بحقوق الشعب الفلسطينى لكنها تماطل فيما يتعلق بالمستوطنات، الخليل، القدس، بيت لحم ،المعتقلين، الحدود، السيطرة، السيادة، والعودة. كل هذه القضايا لايريدون حلها

والنتيجة أن عملية السلام فقدت مصداقيتها.

ـ شيخ عماد.. قال لى العميد غازى الجبالى أن حماس صنيعة إسرائيل، وكل ما معها من سلاح هو هدية من إسرائيل لضرب منظمة التحرير الفلسطينية، الكلام الذى ينفى ذلك يؤكد من ناحية أخرى أن إيران هى التى تمد «حماس» بالسلاح والمال. إذن حماس تنفذ سياسة قادمة من خارج الوطن، فما هى حقيقة حماس خاصة وأن كلامك الآن عن مبدأ التفاوض مع إسرائيل من خلال السلطة يتعارض مع ما سمعته بالأمس من الدكتور حيدر عبد الشافى الذى يؤكد أن حماس لا تعترف أصلاً بوجود إسرائيل.

يقول عماد: القول بأن حماس صنيعة إسرائيل فيه من المغالطة الكثير، فكلنا يعلم أن حماس ولدت من رحم الانتفاضة، وبالتالى لايستطيع أحد أن يدعى غير ذلك. وحماس هى امتداد لجماعة الأخوان المسلمين التى كانت موجودة عندنا منذ سنوات فى قطاع غزة، وفى الانتفاضة ولدت لكى تكون شكلاً يلائم ظروف الانتفاضة، الإخوان المسلمون تنظيم اجتماعى سياسى تربوى أخلاقى، لكن الانتفاضة أوجدت مرحلة جديدة وهى النضال، فكانت حركة حماس، والمعروف عن إسرائيل بعدائها اللامتناهى للاسلام لايمكن أن تحتضن حماس. ثم أن حماس ليست تنظيماً محلياً فقط، بل له جذوره وامتداداته فى الخارج، وله مواقعه فى الاردن وسوريا ولبنان وأوربا وأمريكا. أما عن تمويل حماس فهو تمويل داخلى عبر التبرعات من المؤسسات الإسلامية المختلفة، والزج باسم إيران هنا هو من قبيل الموضة، حيث اصبحت تهمة لمن لاتهمة له، ايران كما تعلم عندما نشأت اختلفت مع الإخوان المسلمين، وكلنا يعلم موقف الإخوان من الشيعة، أشد الناس كرها لإيران هم الإخوان المسلمون. ولكن فى الفترة الأخيرة وبعد «مرج الزهور»

تحسنت العلاقة بين إيران وحماس، لقد كنت المسئول الأول عن حماس فى عام ١٩٩١ فى الضفة والقطاع، فى تلك الفترة كانت علاقتنا مع إيران سيئة جداً، ولكن فى ١٩٩٣ صارت لنا صلات مع حزب الله فى لبنان، وبدأ نوع من الدعم السياسى، ولم تخرج العلاقة عن ذلك، لقد التقينا مع العراق ومع سوريا ومع مصر ومع السعودية والتقينا مع الملك فهد. قد يكون الخط السياسى الحالى لحماس يلتقى مع إيران ولذلك علت الأصوات تؤكد أن إيران هى التى تمول حماس، ولكن هذا غير صحيح.

ـ أخ عماد.. على ذكر حزب الله، أنت تعلم أنهم يقتلون عددا من اليهود يومياً، ومع ذلك لم تنتفض إسرائيل هناك مثل انتفاضتها هنا، مما يؤكد أن ما يحدث هو مجرد ذريعة للتراجع عن اتفاقية الحكم الذاتى أو القضاء نهائيا على حماس.

ورد على الفالوجى بقوله: إسرائيل تدرك تماماً بأنها لن تستطيع التأثير على حركة حماس، فمنذ الانتفاضة ونحن هنا وفى الضفة الغربية، ايامها كانت إسرائيل موجودة هنا وجودا مباشرا، وحاولت إسرائيل طويلاً عن طريق الاعتقالات أن تضرب حماس، لكنها فشلت. إسرائيل ضربتنا عشر ضربات، فكانت تقتل فى كل مرة ما يزيد عن ٢٠٠٠ عنصر. لكن كانت تخرج حماس بعد كل ضربة بقوة أكبر، كان شعارنا الضرب الذى لايفنينا يزيدنا قوة، وهذا تعلمه إسرائيل جيداً، فالقضاء على حماس هو ضرب من ضروب المستحيل، لأن حماس ليست تنظيماً بسيطاً أو جهازاً، حماس تنظيم جماهيرى معقد له قاعدة ليست هينة، وهو الفصيل الثانى الرئيسى فى الساحة الفلسطينية، وهو فصيل منافس حقيقى لفتح ولمنظمة التحرير.

وفى أى انتخابات ستتأكد أن المنافسة شديدة، لذلك لايوجد حل لحماس إلا

بالحوار معها وهذا ماتدركه إسرائيل. لهذا كان الحوار مع حماس مطلبا من الجميع. إسرائيل نفسها كانت تطلب من عرفات أن يحتوى حماس درءاً للعنف.

شيخ عماد.. لو استحكم الطوق الأمنى أكثر من ذلك فهل تستبعد أن يصيح مناد فى الشعب الفلسطينى من جديد قائلا: حى على الجهاد.

يقول عماد الفالوجى: والله لكل فعل رد فعل. ولكن إسرائيل أذكى من ذلك بكثير. لأنها لاتضغط لدرجة الانفجار، وإسرائيل أكثر الاطراف علماً بالنفسية الفلسطينية أكثر من السلطة الفلسطينية ذاتها، فإسرائيل لها خبرة طويلة مع الفلسطينين وتعاملهم بخبرة العالم المطلع على كل ما يدور، لذلك لا أعتقد أن إسرائيل سترتكب هذا الخطأ القاتل، ما يحدث هو خطوات انتقامية منهم إرضاء لشعبهم ثم فى النهاية يخفف الطوق ثم يرفع.

ـ شيخ عماد اريد أن أعلم منك حكم الدين فى صبى يلف خصره بحزام ديناميت ويفجر نفسه فى عدد من الإسرائيليين، هل هذا استشهاد أم انتحار؟.

يقول الشيخ عماد: للأسف لست عليماً بشئون الفقة حتى أفتيك فى هذه المسألة الخلافية، وعندكم علماء فى مصر يستطيعون الإجابة، لكنهم للأسف غير معنيين بالأمر، رغم أن فداحة هذا الأمر تقتضى اجتماع عدد كبير من علماء المسلمين ليخرجوا لنا بفتوى: هل هذا العمل ينال أجر الشهادة أم لا.. خاصة وأن العمليات الانتحارية لم تعد مرتبطة بفلسطين فقط.. بل هناك فى جنوب لبنان وفى الجزائر أيضا، وأنا لم أسأل الشيخ أحمد ياسين «مؤسس حماس» فى ذلك لأنه عندما اعتقل لم تكن العلميات الانتحارية قد بدأت.

ـ أخ عماد انت تجمع بين نقيضين يحتاجان إلى تفسير، فقد دخلت المجلس التشريعى على قائمة فتح، وتتحدث داخل المجلس متبنيا فكر حماس، أليس هذا

التفافاً وتناقضاً؟.

يجيب الشيخ عماد الفالوجي: أنا لم أدخل ضمن قائمة فتح ولكن دخلت كإسلامي مستقل ضمن ائتلاف وطني، نحن في دائرة الشمال، وكان المطلوب انتخاب سبعة، فصار نقاش حول تقديم قائمة ائتلافية تضم مرشحين من فتح وإسلاميين ومستقلين. وقد لاحظ الناس أن اغلب القائمة من فتح فوضعوني ضمن فتح، وخضنا الانتخابات بهذا الشكل ووصلنا للمجلس لأثبت للجميع أن فلسطين لن تنجح إلا بالائتلاف بين فتح وحماس والجبهة الشعبية والمستقلين، هذه التركيبة إذا استطعنا أن نصنعها ستحظى بدعم الشعب، والدليل نجاحنا في الانتخابات.

ـ ولكن يا أخي هل تعتقد أن هذا المجلس التشريعي يمكن أن يقوم بدور في ظل احتلال اسرائيلي غير مباشر؟.

يجيب الشيخ عماد: اتمنى أن يقوم بدور، ولكن هذا المجلس سيعتني أكثر بالأمور الداخلية الفلسطينية وسنعتبر أنفسنا نجحنا إذا استطعنا أن نجعل فيه لجنة للحوار الفلسطيني لتقوم بدور هام في المرحلة القادمة.

ـ ولكن أمامكم قضية أهم من هذا الحوار وهي شباب الانتفاضة العاطل بلا عمل، و٣٠ ألف عامل فلسطيني كانوا يعملون في إسرائيل. كيف يمكن أن يسهم المجلس في حل هذه المشكلة؟.

يقول الشيخ عماد: هي معضلة في الواقع، لأن قطاع غزة مرتبط ارتباطا وثيقاً بإسرائيل. كل الايدي العاملة هنا تعمل هناك. لذلك ليس من السهولة أن نستغني عن المصانع الإسرائيلية التي تستوعب الآلاف من عمالنا، وفي نفس الوقت نحن لانريد أن نكون أسرى لتلك المصانع الإسرائيلية، على هذا التناقض الرهيب نحن

نعمل الآن لتوفير عمل ملائم لعمالنا داخل قطاع غزة وهذا يتطلب سنوات، لذلك نحن توجهنا الآن للصناعة الداخلية، واستثمار رأس المال الفلسطيني فى الخارج ليستثمر فى الداخل من أجل بناء مؤسسات ضخمة تستوعب عدداً كبيراً من العمال ومع ذلك لن نستغنى عن العمل فى إسرائيل.

ـ أخشى أن أقول انك تحلم، فكيف يمكن لصاحب رأس المال أن يستثمر ماله هنا فى ظل تلك الظروف المحبطة، ألا تعلم أن رأس المال جبان؟.

يقول الشيخ عماد: أعلم.. ولا أحلم.. فلو قمنا بتشريع قوانين فى المجلس تحمى رأس المال فلن تكون هناك مشكلة، سواء أكان صاحب هذا المال فلسطينياً أم عربياً، أنا لا أعول كثيراً على الدول المانحة لكى تبنى لنا مصانع فى الضفة والقطاع، أنا أريد أموالا عربية حتى توقف نزيف الإحباط الذى جعل عدداً كبيراً من شباب فلسطين يفكرون فى العودة إلى المنفى، وأخشى أن أقول ـ حسب تعبيرك ـ أن هناك مخطط لتفريغ مناطق الحكم الذاتى من شباب فلسطين، هل تعلم أن الولايات المتحدة التى كانت تمانع فى منح تأشيرات للفلسطينيين للسفر إلى أمريكا أصبحت هى التى تسعى وتمنحها بمنتهى السهولة! ماذا تسمى هذا؟ أليس مخططاً؟ لذلك أنا أصيح بأعلى صوتى.. يا شباب فلسطين تشبثوا بالأرض واصبروا وصابروا لأنها لن تصبح جنة بالكلام، بل بالعمل، ولن يقدر على العمل إلا سواعدكم. أرجوكم تعالوا نبنى وطننا وتأكدوا أن قوى العالم لن تستطيع ـ بعد الآن ـ إخراجنا منه.

الفصل الحادى عشر

قرية الخونة

بمجرد أن قال: سلام عليكم، أضاءت اللمبة الحمراء فى الطائرة الإسرائيلية، فضغط الطيار على زر التفجير، تفجر اللغم البسيط فى مخ عياش.. وكان كل شئ معدا لهروب الخائن بفعلته الشنعاء

أدرك الآن - والآن فقط - أننى هش، مثل قطعة صلصال يابسة، أو بالأحرى مثل عملية السلام فى منطقة الشرق الأوسط. فاالذى يتحدث عن المحن التى مرت به وفى حلقة مراراتها.. بعد ربع قرن.. هو فى غاية الهشاشة. نعم.. الآن أدركت أن زجاح مدرستى المدهون بالأزرق كان أقوى منى لأنه صمد أمام هدير مدافع الهاون والهاوزر، وأزيز الطائرات الفانتوم وسكاى هوك. زجاج مدرستى مثل هؤلاء الناس الذين أتجول بينهم الآن، يعتبرون معاناتهم أمرا سرمدياً عليهم التعايش معه، من يلقى ربه منهم يحتفل اهله باستشهاده. ومن ظلت تجرى فى عروقه دماء الحياة.. يفكر فى وسيلة يعيش بها حياته بلا انكسار..

هل خلق هؤلاء الناس من نفس «الطينة» التى خلقنا منها؟ أعلم أن الإجابة نعم، ولكن لماذا هم لايشكون أو يتبرمون أو يتاجرون بمعاناتهم ويطلبون الثمن؟. أى قدرة تلك التى تجعلهم يقفون فى طابور للخبز طوله كيلومتر وعندما يحين دورهم يكون الخبز قد نفد، فلا يبكون ولايسبون البائع ولايلعنون عرفات ولا حماس ولا كل من تسبب فى هذا الطابور!.

أعطانى عماد الفالوجى بهدوئه - الذى اتهمته بالاصطناع - درساً فى النضال أزعم أننى لن أنساه، قبل أن أجلس إليه كنت أظن أن النضال حالة طارئة فريدة ينبغى أن نتفرغ لها وحدها ونوقف من أجلها كل تروس الحياة الأخرى، لايهم أن نأكل أو نشرب أو نضاجع النساء. عيب أن نغنى أو نذهب للسينما أو نتحدث عن الجنس. جريمة لاتغتفر لو ضحكنا. ولهذا نضالنا قصير العمر، لايلبث أن يأفل لنبدأ نحن فى استرجاع أيامه ولياليه ومعاناته، ونتصور أننا أبلينا بلاء أحسن من بلاء غاندى لتحرير بلاده.

فى غـزة وبيت لحم ورام الله، فى نابلس وطولكرم والخليل، فى كل أرض فلسطينية تتحدث بالعربية نضال أبدى، لايعرف النظر فى ساعات اليد لاستعجال النهاية، ولا قراءة نتائج الحائط لحساب ما مضى وما تبقى. ولا الكتابة بالطباشير

على الجدران كما يفعل السجناء الذين أعيتهم فترة العقوبة.

النضـال هنا هو كرات الدم الحـمراء وبلازما الحـياة. بدايتـه لحظة ميـلاد الطفل الفلسطينى. ونهايته عندما يلفون جثـمانه بعلم فلسطين ليواروه التراب. ليس حالة طارئة يوقفون عليها سنوات العمـر، إنهم يأكلون ويشربون ويضحكون ويلاعبون نساءهم وينجبون كثيراً، إنهم يقرأون جيداً ويفكرون بامتياز، ولايحلمون بتحرير الأرض، ولكن بأن يعطيهم الله القدرة على تحرير الأرض، ولهـذا لم يتشنج عماد وهو يحـدثنى عن مـقتل يحـيى عـيـاش، ولم يذرف الدمع وهو يخلص فى نهـاية حـديثه مـعى إلى أن إسرائيل لاتريد السـلام، ولم يبك على اللبن المسكوب حـين قال: لقد حذرنا عرفات من البداية.

أجمل ما فى نضالكم يا صديقى.. يا شـقيقى.. يا أخى، انه نضال هادئ يعرف هدفه ولايرضى بالفـتات، وأروع ما فى تفكيركم أنكم تحفظـون إسرائيل عن ظهر قلب، تتنبأون بخطواتها القادمة وتعرفون إلى أين تنتهى!.

عذراً لم تعلمنا كـتبنا المدرسية شـيئا من هذا، ولم تنقل لنا نشـرات الأخبار أى عنوان من عناوينكم الحقيقية، ولم تضع التحليلات ـ وما أكثرها ـ أيدينا على معنى وجودكم هنا.

لابد أن يزوركم كل عربى ليعرف بنفسه، ودون أن تقصوا عليه شيئا، أن الدماء الفلسطينية ليست كلون دمائنا، وأن الحياة الفلسطينية «أجمل» من حياتنا، وأن الغد الفلسطينى يحمل بشرى لا يحملها الغد العربى الآخر؟!.

إيه ياشـوارع غزة وياجدرانهـا البيـضاء المزدانة بالدم، الـدم الذى كتبـوا به على الحيطان برنامج عـمل شهداء الغـد.. كتائب عز الدين القـسام، لم يكتبـوا: تسقط إسرائيل وتعيش فلسطين، بل كتبوا: غدا يتحدث العالم عما فعله شباب فلسطين. الكتابة ليست قديمة، ولكنها متجـددة كتجدد الدم فى الشرايين، وكأنهم يعوضـون أنفسـهم عن عدم وصول الصحف اليـهم فكتبوا مـقالات موجزة تاركـين نشرات

أخبار العالم لتحكى التفاصيل فيما بعد.

أربعة أيام قضيتها فى غزة، والآن ها هو ماجد ينبهنى ببوق سيارته إلى موعد المغادرة إلى القدس. وبقدر سعادتى بأننى سأصلى فى المسجد الاقصى وقبة الصخرة، وبأننى سأعرج على كنيسة القيامة. بقدر حزنى لأننى سأتركهم فى حصارهم وأمر من حاجز أريز الرهيب. لمجرد أننى أحمل بطاقة صحفية إسرائيلية سأعبر ـ دونهم ـ من الحصار. ..يا للعار.

كان ماجد صامتاً لايريد أن يتكلم لدرجة أنه لم يرد على سلامى. ولم يتحرك بالسيارة إلا عندما هززته فتبسم وقال: عفوا لم أنتبه لكما.. كنت شارداً.

ـ قلت له: أنت حزين ولست شارداً

ـ فقال: نعم والله أنا حزين

ـ إذن لن نذهب إلى القدس إلا إذا ذهبت عنك سحابة الحزن.

ـ اطمئن.. ستذهب، انها مثل الصداع الذى يفاجئ الشخص فيصده بحبة أسبرين.

ـ هل يمكن أن أعرف سبب حزنك.. إلا إذا كان شيئا خاصاً لايجب أن تبوح به.

ـ والله يا أخ عاطف هو شئ خاص إذا نظرت له من منظور أننى فلسطينى وأنت مصرى، ولكنه هم عام إذا نظرت له من المنظور العربى، إنه شئ مخجل؟!.

ـ يبدو أنك بارع فى الفوازير يا ماجد، أرجوك قل لى ما هى الحكاية.

ـ لقد ضُبط عميل جديد لليهود اليوم، كنا نظن طوال الفترة الماضية بأنه رجل وطنى طيب، لكن للأسف لابد أن يكون بجوار المكان النظيف ـ دائما ـ صفيحة زبالة.

ـ عميل..؟ صفيحة زبالة..؟ أنا لا أفهم شيئا على الاطلاق.

ـ انا لا أريد أن تكون هذه القصة آخر ما تسمعه فى غزة، أعلم أنك مشحون

وتقف معنا وتعتقد أن كل ناس غزة بلا استثناء من فصيلة واحدة.

ـ لا ياصديقى.. فنحن لا نعيش فى الجنة.. إننا هنا على الارض، والمجتمع الفلسطينى ـ كأى مجتمع ـ لابد أن يشذ عن قاعدته نفر قليل يؤكدون القاعدة ولا يزعزعونها فقل لى ما هى الحكاية؟.

ـ لأننا فى حرب مع إسرائيل اقرب إلى حرب العصابات التى لايمكن التنبؤ بتوقيت هجماتها فقد حرص اليهود على زرع عملاء لهم بيننا، أنا لا أتحدث عن اليهود المستعربين فهؤلاء خطرهم قليل إذا ما قيس بالعملاء الذين هم من أهلنا، ويعيشون معنا، ويطلعون على أسرارنا ثم يقدمونها على طبق من ذهب لليهود، إنهم البقعة السوداء الوحيدة فى الثوب الفلسطينى، يبيعون ضمائرهم ووطنهم من أجل ماذا؟ المال.. تصور!.

ـ وماذا فعلتم بالعميل الذى ضبط مؤخراً؟.

ـ لاشئ.. لقد هرب إلى قرية الخونة.

ـ قرية الخونة؟! إننى أسمع أخباراً جديدة تماماً.. هل يوجد شئ اسمه قرية الخونة؟

ـ نعم ومنصوص عليها فى ملاحق الإتفاقية مع إسرائيل، إنها قرية تنتمى إلى قطاع غزة وتحرسها كتيبة إسرائيلية، حيث تعيش فيها ٤٠٠ عائلة من العملاء

ـ فلسطينيون؟.

ـ كانوا كذلك قبل أن ينكشفوا.. الآن هم يهود.. بل لادين لهم.

ـ وهل هؤلاء هم الذين كانوا ينقلون تحركات الفدائيين لإسرائيل؟.

ـ بل ينقلون كل مايدور فى بيوتنا، لدرجة إن إسرائيل تعرف ماذا يدور بين الرجل وامرأته، ألم أقل لك أنهم ٤٠٠ أسرة.. أى أن الزوج والزوجة والأولاد عملاء أيضاً.

ـ ماجد.. هذا كلام موجع ومفاجئ.

ـ ألم أقل لك أنكم لاتعرفون عنا إلا القليل.

ـ ولكن ماذا يحدث لو سبقت أيديكم يد اليهود وقبضتم على أحدهم؟.

ـ قبل الحكم الذاتى كان شباب صقور فتح وحماس ينفذون فيهم حكم الاعدام بعد تجريسهم على نطاق ضيق.. فاليهود كانوا هنا بصورة مباشرة.

ـ لقد سمعت أن إسرائيل قتلت يحيى عياش بمساعدة هؤلاء العملاء ولكننى لم أدقق كثيراً.

ـ هذا الشخص الذى تقصده غير موجود الآن بقرية العملاء ولكنه قبض مليون دولار من اليهود ويعيش الآن مع أسرته فى تل أبيب.

ـ مليون دولار مرة واحدة؟!.

ـ نعم لقد كانت إسرائيل تضع ميزانية مليون دولار لمن يأتى لها برأس يحيى عياش المفكر العسكرى لحماس ومهندس عملياتها.

ـ وكيف تمكن هذا الخائن من عياش؟.

ـ كان يمت بصلة قرابة لصديق كان عياش يختفى عنده. وعندما تعطل التليفون المحمول الخاص بعياش عرض ذلك الشخص أن يصلحه، أنت تعلم طبعاً أن التليفون هو الوسيلة الوحيدة لكى يتصل بها عياش مع أعضاء حركته وأخذ الخائن التليفون المحمول إلى تل أبيب وسلمه للمخابرات الإسرائيلية وأخبرهم بمكانه. فقاموا بتلغيم التليفون بحيث لاينفجر إلا عندما يتحدث فيه يحيى عياش فقط. وفعلاً جاء الرجل بالتليفون إلى عياش، وفى الوقت نفسه كانت طائرة إسرائيلية تحلق فوق المكان الذى يوجد به عياش، ولأن الشهيد عياش حذر بطبعه طلب من الرجل أن يطلب رقما ويتحدث فى التليفون أولاً فتكلم الرجل ولم يحدث شئ. وهنا اطمأن يحيى عياش وطلب رقم والده ليطمئن عليه، وبمجرد أن قال سلام عليكم اضاءت اللمبة فى الطائرة الإسرائيلية فضغط الطيار على زر التفجير فتفجر اللغم البسيط فى مخ عياش فقط دون أن يصيب من حوله.. ودون أن يصيب

الجانب الآخر من رأسه، لقد كان لغماً سحرياً، وكان كل شئ معد لهروب الخائن فأفلت بفعلته الشنعاء.

ـ لم أكن أعرف ـ يا ماجد ـ هذه التفاصيل المؤلمة.

ـ القصص المؤلمة كثيرة، هل تعرف أن الصدفة وحدها كشفت رجلاً كبيراً فى السن كنا نذهب اليه ونستشيره ونطلب نصحه وكان هو ـ فى الحقيقة ـ عميلاً محترفاً لليهود.

ـ وكيف كشفتم ستره؟.

ـ كان له إبنا شاباً يعمل فى إسرائيل.. مثل آلاف الشباب الفلسطينيين. يذهب إلى هناك صباحاً ويعود فى المساء. وكان لهذا الإبن صديق فى مثل عمره لايفارقه. كان الشبه بينهما غريباً حتى ظن الكثيرون انهما توأم، فجأة اصيب والد الشاب الذى يعمل فى إسرائيل بالفشل الكلوى وتكاثرت عليه أمراض الشيخوخة لدرجة أن ابنه فضل أن يرعاه ولم يعد يذهب إلى عمله، فى الوقت نفسه كان الشاب الآخر عاطلاً يبحث عن عمل فأعطاه صديقه الكارنية الخاص به ليعبر من أريز للعمل بدلاً منه فى إسرائيل. وقال له لن يكشفك أحد، فالصورة تشبهك طبق الاصل، وفعلاً ذهب الشاب إلى أريز ووقف فى طابور العابرين من الشباب الذين يعملون هناك، والذين كانوا يتكلمون معه على أنه صديقه الآخر، ولكن عندما وصل إلى الضابط واطلعوا على الكارنية قالوا له انتظر انت قليلاً، وسقط قلب الشاب فى قدمه، لقد ظن أنهم كشفوا أمره وسوف يفسرون الأمر على انه سرق الكارنيه من صاحبه ليمر وينفذ عملاً ارهابياً فى اسرائيل، نظر الشاب حوله يفكر فى طريقة للهرب فوجد كل الطرق مسدوده.. ولو جرى فى اتجاه غزة سوف يمطره هؤلاء الجنود الإسرائيليين بوابل من الرصاص، وذهبت خضرة الحياة من وجه الشاب وحلت محلها زرقة الموت الذى استعد لمواجهته حيث لا مفر منه.

وطالت ساعات الانتظار حتى بلغت أربع ساعات، جاء بعدها ضابط ليستدعيه

ويدخله إلى مكتب بعيد كان يجلس فيه ضابط إسرائيلى برتبه عقيده قال لنا الشاب فيما بعد أن العقيد الإسرائيلى استقبله بترحاب شديد وكأنه يعرفه. ثم سأله فجأة عن أبيه. ولأن الشاب فى منتهى الذكاء أدرك أنه يسأل عن والد صديقه فقال له بسرعة انه مريض جداً ولايستطيع مغادرة الفراش، فرد عليه الضابط: الآن فقط عرفت لماذا كف عن الاتصال بنا، لقد كنا فى حاجة إليه هذه الأيام، وهنا تدفقت الحياة فى عروق الشاب من جديد وأيقن انه أمام كنز ثمين لو أتقن دوره. وخمن الشاب أن والد صديقه عميل لإسرائيل وأنه لو نجح فى اقناع ذلك العقيد الإسرائيلى أنه على علم بذلك سيكتشف الأمر كله. قال الضابط الإسرائيلى: اننا نحدثه مراراً ولكنه لايرد علينا. فقال الشاب: لايستطيع لأنه إما فى المستشفى أو فى سريره بالبيت ويجلس حوله إخوتى الذين لا يعلمون شيئاً عن الموضوع.

وهنا أدرك الكولونيل أن الشاب على علم بما يفعله والده فقال له: لقد أرسلنا له الفلوس وقطعة السلاح وجهاز الإرسال الجديد لكنهم مدفونين فى مكانهم ولم يذهب أحد لأخذهم كالمعتاد.. فلماذا لم يرسلك أنت؟.

فقال الشاب بتلقائية: للأسف ابى يريد أن يبعدنى عن هذا الأمر رغم اننى عرضت مساعدته فى مرضه الذى يحتاج علاجه إلى أموال كثيرة.. ولولا خوفى من افتضاح أمره لطلبت منكم أن تعالجوه فى مستشفيات تل أبيب.

فقال الضابط: لا. نحن لا نريد حرقه أننا نحتاجه بشدة وسوف أدلك على المكان الذى ندفن فيه رسائلنا لابيك. ورسم الضابط خريطة للشاب عن مكان فى غزة ثم اعطى له شفرة الاتصال الجديدة، وهنا أيقن الشاب أن صديقه مشارك لوالده وإسرائيل تعلم ذلك وإلا ما اعطته كل هذه المعلومات بسهولة.

ـ ومثلما تطير الطيور بأرزاقها طار الشاب بالخريطة وبالشفرة الجديدة وذهب بمفرده فى الليل إلى المكان وحفر فيه فوجد قطعه السلاح والجهاز ومظروفاً مليئاً بالشيكلات الإسرائيلية.

وحمل الشاب الرسالة بكاملها وذهب بها إلى مقر السلطة الوطنية الفلسطينية ليتم القبض على الرجل وإبنه بسرعة ليصاب الجميع بصدمة، فآخر شخص كان يمكن أن يتصوره الناس أن ذلك الرجل خائن.

ـ سألت ماجد: وماذا كان رد فعل الإسرائيليين؟

ـ في الحقيقة لا أعرف لأن هذا الامر لايهم بعد أن فجعنا فى الرجل الذى اعترف بأنه عميل منذ ثلاثين عاماً، تصور.. يستغفلنا طوال هذه المدة!.

وها نحن قد وصلنا إلى نفس النقطة التى استقبلنا فيها ماجد منذ أربعة أيام، ولكن شتان ما بين استقباله لنا ووداعه، لقد رفض أن يأخذ ثمن التوصيلة رغم إلحاحنا، وظل يحتضنى لمدة ثلاث دقائق وكأنه لايريدنى أن أمضى ثم نظر إلى علم فلسطين الذى يرفرف حولنا وقال: عندما تأتى فى المرة القادمة سيكون هذا العلم حقيقياً، يعبر عن دولة مستقلة، لها تأشيرتها المستقلة، وعملتها المستقلة، وجوازات سفرها المستقلة، ولن تحتاج إذا أردت أن تزورنا إلى الذهاب لسفارة إسرائيل، إلى اللقاء يا أخى.

وتخذلنى دموعى مرة أخرى، حاولت أن أمسكها فكدت أجهش، سارعت الخطى حتى لايلمح الحاج إبراهيم مسلم ضعفى.. ولكننى عندما نظرت إليه وهو يحدثنى بعد قليل اكتشفت من احمرار عينيه أننى أسعد حالاً.

ولم يخرجنا من حالة الشجن التى غرقنا فيها إلا صوت العسكرى الإسرائيلى وهو يوجه تحذيره الينا بأن نظل بحقيبتينا بعيداً، ورغم أن سلاحه كان فى وضع الاستعداد مثل ملامح وجهه إلا أننا لم نخف من لحظة سهو منه فيضغط على الزناد وينتهى كل شئ، لم تكن شجاعة منى، ولكنه كان زهدا فى الحياة التى تنتظرنى بعد أن اعطيت ظهرى لحياة أخرى لها معنى آخر.. فى غزة.

الفصل الثانى عشر

القدس لنا

**الناس فى كل العالم هى
التى تختار عوا صمها
أما القدس فهى التى
تختار ناسها**

ليس الشباب الفلسطينى وحده يعيش حالة سرمدية من النضال. فهناك دولة قوية.. تمتلك أسلحة نووية، ودعماً من أقوى دولة فى العالم تعيش حالة سرمدية أيضاً، ولكن من الخوف!.

ما هذا الذى يفعله الجندى الإسرائيلى بحقيبتى وحقيبة إبراهيم؟ لم يقتنع برأى جهاز الأشعة بأن الحقيبتين خاليتين من الأسلحة والمتفجرات، فهناك أسلحة أخرى - فى رأيهم - لا تكشفها الأشعة، ولهذا ارتدى الجندى قفازا ن من مادة لا أعرفها - وما كان يليق أن اسأله - وظل يقلب بيديه داخل الحقيبتين، كل حقيبة استغرقت عشر دقائق من التفتيش، وخلفنا كانت تقف سيارة إسعاف تنبعث من داخلها آهات تمزق القلب، سألت سائقها بنظرات عينى، فكان أشجع منى وتكلم: لابد أن يفتشوا السيارة قطعة قطعة، ٣ ساعات وأنا على هذا الوضع فالشخص المتخصص فى تفتيش السيارات «الفان» غير موجود، أنا عارف انه سيأتى.. ولكن هل ينتظر هذا المريض؟.

كان الجندى الإسرائيلى من اليهود الغربيين فلم يفهم كلمة واحدة من كلمات سائق الإسعاف الذى أضاف: سمحوا اليوم بعبور المرضى الذين يتلقون العلاج فقط. ولكن بهذه الطريقة من الأفضل لهم الموت فى غزة بين اولادهم!.

جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد تمت أمام عينى وعين زميلى المصور، وبالطبع أمام عينى سائق الاسعاف، لكن ثلاثتنا عجزوا عن فعل أى شئ لانقاذ ذلك الذى يتأوه ألماً داخل سيارة الإسعاف، لعنة الله على الظالمين.

ليتهم احتجزونى وأفرجوا عن سيارة الأسعاف. لكنهم - للأسف - أفرجوا عنى وعن زميلى، وأصبحنا الآن فى الناحية الإسرائيلية من أريز تأهباً للذهاب الى القدس.

وبسبب إجراءات الأمن والتفتيش الإسرائيلية نسيت أن أتصل بالسائق

«موفق»، فماذا نفعل الآن؟ ليس أمامنا إلا انتظار أى تاكسى يأتى إلى هنا ليوصل أحد السائحين أو أحد الصحفيين، ولكن ربما يطول انتظارنا لساعات.

جلست فوق حقيبتى.. وكذلك فعل إبراهيم، تأملت الصمت المحيط بالمكان، وتمنيت فى كل لحظة أن تقطع هذا الصمت سرينة سيارة الاسعاف بعد أن يفرجوا عنها. ولكن ها هى ساعة قد مرت ونحن على حالنا، ولانعرف أبقى المريض على حاله أم صعدت روحه إلى السماء؟.

جاءت سيارة مينى باص فارغة ووقفت غير بعيد عنا، العلامة التى تحملها تشبه العلامات التى تحملها سيارات التاكسى فى تل أبيب.

قلت لإبراهيم: من المحتمل أن يكون هذا السائق يحمل تليفوناً.. مارأيك فى أن نتصل منه بموفق؟.

فقال إبراهيم: ربما يكون السائق يهودياً ولا يفهم إلا العبرية.

اتجهت إلى الرجل أحاول معه، وحين لمحنى هبط من سيارته وترجل وأخذ يتأملنى. وعندما وصلت اليه بادرنى هو بالكلام وقال بالعربى: عايزين تاكسى؟!.

لم أتمالك نفسى من الضحك، فقد كان ذلك الرجل العجوز يتكلم بنفس الطريقة التى يتكلم بها اليهود فى الأفلام المصرية القديمة. ذكرنى بالممثل استيفان روستى وهو يتحدث مع ابنتيه راشيل واستر بطريقة «خنفاء» كنت أظن أن لا وجود لها حتى سمعت ورأيت هذا السائق، حتى أنفه تشبه أنف اليهود المعقوف التى يرسمها رسامو الكاريكاتير العرب.

الغريب أن الرجل لم يهتم لضحكى وواصل كلامه متسائلا بنفس الطريقة الخنفاء: على فين بتروحوا؟.

فقلت له: أنت فين طريقك؟.

فقال: بأروح القدس الشرقية مع صحفية امريكية.

فقلت له: فين هى الصحفية؟.

فقال: هون فى أريز.. بتيجى حالاً

قلت له: ونحن سنذهب إلى القدس الشرقية أيضاً.. هل نأتى معك؟.

فقال: ها هى وصلت هناك. بنسألها فى الأول.. واذا وافقت ما فى مشكلة.

لم أشأ أن أحرج نفسى وابتعدت عن الرجل حتى إذا سألها ورفضت أكون بعيداً.

صاح علىّ الرجل وقال: هيا.. هاتوا أغراضكم.

صعدت إلى المينى باص وحرصت على شكر الصحفية الأمريكية لموافقتها فقالت: ليس هناك ما يستدعى الشكر، فسوف يتقاضى منكما ثمن التوصيلة على أى حال.

وقطعنا نفس الطريق إلى القدس الذى قطعه معنا موفق من قبل لاستخراج التصريح لدخول غزة، ولكن هذه المرة مع سائق إسرائيلى «قح» وصحفية أمريكية لم تشأ أن تضيع وقتها فأخرجت بعض الأوراق تقلب فيها.

كنت أجلس فى المقعد المقابل لها إلى اليسار، وبدافع الفضول تأملتها فى جلستها. نحيفة شقراء، ليست جميلة ولكنها خفيفة الروح، لايمكن أن تكون أقل من ٣٥ عاماً.

بحاسة الأنثى التى تشعر بنظرات الرجل حين تلاحقها، شعرت بى ونظرت ناحيتى ثم ابتسمت وقالت: ARE YOU ALL RIGHT? فقلت لها: نعم وأنا أضحك، لأن الترجمة الحرفية لسؤالها قد لاتتوافق مع الموقف، أما الترجمة الأمريكية لسؤالها فتعنى أنها تعتقد أننى فى حالة غير طبيعية لأننى أطيل النظر

اليها بهذه الطريقة الفجة.

ولكننى حاولت أن أثبت لها أننى طبيعى جداً فقلت لها: ألا تلاحظين أن هذه السيارة تضم أهم ثلاثة أطراف لعملية السلام فى المنطقة؟.

نظرت ناحية السائق وناحيتى ثم صاحت: أو.. معك كل الحق.. ألهذا كنت تنظر ناحيتى طويلاً؟.

فقلت لها: علاوة على أن هناك سببا آخر.. فقد كان هذا هو السبب الأهم.. فهذه العربة هى عربة السلام!.

ضحكت طويلاً وطوت أوراقها وقالت ان اسمها «چينى واتسون» وأنها صحفية متجولة تعمل مع أكثر من مطبوعة حسب طبيعة العمل الذى تكتبه.

فقلت لها: هذا النوع من الصحفيين ليس منتشراً عندنا فى مصر، لكنه موجود على نطاق ضيق فى كتاب المقالات وليس فى محررى التحقيقات الصحفية الخارجية.

ثم سألتنى: وأنت ماذا تفعل هنا فى إسرائيل؟.

فقلت لها: أسمع وأرى وأسأل وأكتب

فقالت: عفوا.. لا أفهم ماذا تعنى

فقلت: كنت أعتقد أن الأمريكيين يفهمون بمجرد التلميح

فقالت: ليس كل الأمريكيين مثلى

قلت لها: آسف.. لم أقصد الإهانة ولكننى أحببت أن أقول لك أننى صحفى مثلك بطريقة مختلفة.

فقالت: أوو.. زميلى العزيز، ولكنك تتلاعب بالكلمات مثل الإسرائيليين، يبدو أن العدوى اصابتك.. كم يوما لك هنا؟.

فقلت: هذا هو اليوم السابع.

فقالت ضاحكة: حسنا.. هذا يكفى لانتقال العدوى.. والآن ما رأيك فيما يحدث فى هذا المكان المجنون؟.

فقلت لها: هل تعتقدين أن وصف «المجنون» هو الملائم لما يحدث هنا؟.

فقالت بأسف: معذرة فقد نسيت للحظة أنك عربى ولا تمارس مهنتك هنا بحياد مثلى. أنا أسعد منك حظاً.

فقلت لها: المهم أن تكونى عادلة وموضوعية ومحايدة فعلاً.

فقالت: هذه هى طريقتى فى العمل.. لم أتخل عنها أبدا.. ولكنك لم تخبرنى باسم جريدتك

فقلت لها: أخبار اليوم الأسبوعية.

وظل حديثنا يدور حول عموميات دون أن ندخل فى تفاصيل، فقد كنت أخشى أن تكون أمريكية يهودية فتدخل المناقشات فى «حارة سد» لا تخرج منها.

ثم انشغلت هى بعد ذلك فى مناقشة مع السائق قالت له فى نهايتها: أنت غبى. لكن «ستيفان روستى» لم يكن يفهم الإنجليزية.

من عجائب القدر أن يقودنا يهودى إلى القدس!.

ومن الغريب أن يسألنا عن اسم الشارع الذى نريده، لم يكن ناقصاً إلا أن يسألنا عن اسم الناس الذين نقصدهم!.

ها هى القدس، تماماً مثلما حلمت بها، حبيبة جميلة لا تشيخ، ترفل فى ثوبها العربى الذى يرفض نجمة داود. تضع اليشمك على وجهها وتطل من وراء المشربية. وهذه هى رائحة بيت المقدس التى فشلت إسرائيل فى تهويدها.

سمعت كثيراً عن شارع صلاح الدين المؤدى إلى باب العمود.. أشهر الأبواب

في سور بيت المقدس، لكننى لم أتصور أنه بهذه الحياة، الوجوه العربية هنا تختلف عن الوجوه العربية التى ودعتها هناك. هل هى روح القدس التى منحتهم قبساً من الطمأنينة؟ هل لأنهم يؤدون فروضهم الخمسة فى أولى القبلتين؟ يالنضارة وجوههم وصفاء أرواحهم ونقاء سريرتهم.

حين قابلت الأخت مريم في مكتبها بشارع صلاح الدين رحبت بنا كثيراً ثم سألتنى عمن اعطانى عنوانها. فقلت لها: اننى أحمل عنوان مجلتكم من القاهرة وأنت أولى محطاتى بالقدس.

وبدون مقدمات وجسن نبض ولف ودوران، صرت أنا وهى صديقين. حكيت لها قصتى منذ أول خطوة لى فى مطار بن جوريون، وحكت لى ما تفعله الشرطة الإسرائيلية فى القدس، وأن آخر ما تفتق عنه ذهنهم هو إنشاء نقطة شرطة أمام باب العمود سيأتى موشى شاحال لافتتاحه بنفسه.

قلت لمريم :ألا ترين أن خوف هؤلاء الناس لامبرر له؟.

فقالت: الخوف هو خبزهم اليومى، لايطيقون الحياة بدونه، هل سمعت قول نزار: الحب فى الأرض بعض من تخيلنا لو لم نجده عليها لاخترعناه، إحذف كلمة الحب وضع مكانها كلمة الخوف فتجد نفسك أمام نظرية الأمن الإسرائيلية!.

مريم.. أريد الذهاب إلى فيصل الحسينى فى بيت الشرق.. هل تساعديننى؟.

وتدير مريم قرص التليفون وتتحدث مع الطرف الآخر، فأفهم من الحوار أن فيصل خارج القدس ولا يريد الشباب ـ كأجراء وقائى ـ أن يخبروا أحداً بمكانه.

وأقول لمريم: بيت الشرق أصبح صداعاً لإسرائيل، وعلمت أن الكنيست وافق على إغلاقه.

فتقول لى: إنهم يحاولون أن يطفئوا الشمس، كل مشكلتهم هى القضاء على

علاقة الفلسطينيين بالـقدس حتى تصبح عاصمتهم، إنهم لم يفـهموا حتى الآن أن الناس فى العالم كله يختارون عواصمهم، أمـا القدس فهى التى تختار ناسها، وقد اخـتارت القـدس بالفـعل ومنذ زمن بعـيد فلمـاذا المكابرة؟ تعـالى وانظر من هذا الشباك، ألا ينطق كل حجر من تلك الحجـارة ويقول لك بالعربية أهلاً وسهلاً؟ ألا تشم وتسـمع شدو النسـمات العـربية التى تسـتنشقـها؟ أليسـت قريبة مـن رائحة الحسين والأزهر؟.

صدقت يا مريم، والآن سنضع حقيبتينا لديك حتى نذهب إلى المسجد الأقصى ونحقق واحدة من أغلى الأمنيات التى تلازم كل مسلم.

هذا هو باب العمـود.. وهذه هى فاكهة الـقدس على جانبيـه، وهذا هو صوت فيروز يبعث بداخلى وأنا أعـبر الباب إلى «شوارع القدس العتيـقة». وما أجمل أن ترى أول ما ترى طفلـة فلسطينية.. ملائكيـة الوجه وهى عـائدة من مدرستـها إلى منزلهـا مرده: «عـيوننـا إليك ترحل كل يوم».. كى تتـزود بإكسـير الحـياة ورائحـة الفردوس وحفنة من تراب الانبياء.

«ياليلة الاسراء.. يادرب من مروا إلى السمـاء» كيف ينسى كل من يمر هنا فى نفس المكان الـذى يلفنا ذكـرى تلك الـليلة؟ كـيف يمكن أن يضـم هذا المكان من يدنسه؟ انبـياء الله الذين صلوا خلف خـاتم المرسلين يرفضـون ذلك وسوف يحل على اليهود غضبهم.. ولكن متى؟!.

«الغضب السـاطع آت وأنا كلى إيمان». ولكن إيمانـى لم يبرح قلبى.. رغم أنه لم يرق بعد إلى العمل الذى يحررك يا مدينة الصلاة.

دكـاكين العـاديات على الصفـين.. وهدايا «الناس الناظرين» تخطف الابصـار لكن «الإيدين السودا» تتكسب من السـياحة الدينية لنخـسر نحن ثواب الصلاة فى المسجد الأقصى. و«صارت البيوت بلا إصحاب».

و«مشيت في الشــوارع.. شوارع القدس العتيـقة» حتى وجدت نفسى أمـام قبة الصخـرة، كان يجلس على البوابة أربعـة جنود إسرائيليـين، حاولت ألا أراهم هنا بالذات وأحسب أننى نجحت و«سقط العدل على المدافع».

ولولا آثار «القدم الهمجية» فى ساحة الاقصى لحسبت أننى فى الجنة وأن هؤلاء الأطفال الذين يمـرحون هم عصـافيرها، الآن نستطيع أن نـتوضأ ونغتسل بالبرد. ملمس الماء على جلدى ليس ككل مرة أتوضأ فيها، لم يغمرنى هذا الشعور إلا فى مكة وأنا أتوضـأ من ماء زمـزم، لاشك أن هذا الماء كمـاء زمزم من إحـدى عيـون الجنة، فهذا الأثر ليس مجرد إحساس اتخيله لقداسة المكان. إنه حقيقى، أشعر أننى أتطهر وأتطهر حتى صرت ثوباً ناصعاً، ولولا لهـفى على الصلاة لظللت مستسلماً لهذا المياه التى شربت منها حتى انتفخت بطنى.

ورغم اننا كنا فى الفـتره ما بين صـلاتى الظهر والعـصر، كانت سـاحة المسـجد عامرة بالمصلين، ظنـنت أننى لن أحظى بصلاة جماعة حـيث كان إبراهيم ينتظرنى في الخارج لمنعهم دخول آلات الـتصوير. لكن الجماعة كانت تنتظـرنى فانضممت اليهـا مثلمـا انضم الينا بعد ذلك عـشرة مـصلين. ومن لم يبك هنا وهو سـاجد لن يبكى فى أى موضع آخر، إنه بكاء الحب والخضوع والابتهال والرغبة فى الالتصاق بموضع السجود.

وتنتهى الصـلاة.. ونبدأ فى السنة ولا أريد أن أنتهى لولا رفـيقى الذى ينتظرنى بالخارج ليأخذ نصيبه من الصلاة.

اشكرك يارب على هذه النعمة التى غمرتنى بها، الآن أموت مستريح البال، لقد صليت فى المسـجد الأقصى بـعد أن صليت فى بيت الله الحـرام والمسجـد النبوى الشريـف، لم يبق لـى إلا أن ألقى الله بقلب سليم، ليتنى مت وجـبهتى سـاجدة فى المسجد الاقصى تدعو الله أن يرفع مقته وغضبه عن العرب أجمعين، كم تمنيت أن

تكون الصلاة فى المسجد الأقصى هى آخر عهد لى بالحياة، أشعر أن أمنياتى كلها تحققت، ولم يبق منها سوى أن تصبح القدس عاصمة عربية يدخل اليها المسلمون فى كل وقت.

والوقت يمر سريعاً فى ساحة المسجد الأقصى ولابد أن نكون فى تل أبيب قبل الخامسة عصراً حيث موعدى مع الجنرال تامير حسبما حدد لى ذلك المصرى الذى يعمل بالسفارة.

ودعت مريم وزميلاتها فى المكتب واستوقفت تاكسى من شارع صلاح الدين وكان سائقاً عربياً لكنه مختلف تماماً عن موفق وماجد، لدرجة أننى لم أهتم بسؤاله عن اسمه، كان كل همه أن يفوز بصفقة مربحة من وراء توصيلنا مجازفاً بالتعليمات التى تمنع دخول العرب إلى تل أبيب، لقد استغل قرب ملامحه من ملامح اليهود وخاطر. ولم أكن أعرف ثمن هذه المخاطرة إلا مع اقترابنا من إحدى نقاط التفتيش على الطريق المؤدى إلى تل أبيب، ألقى على الجنود التحية بالعبرية والحقها بكلمتين فظنوا أنه من ملتهم وسمحوا له بالمرور. لكنه كان مرعوباً عندما وصلنا تل أبيب، ومن سوء حظه أن المرور كان مختنقاً مما يعطى فرصة لرجال الأمن الإسرائيليين لتفحص الوجوه داخل السيارات، لكن ـ بحمد الله ـ سارت الأمور على ما يرام حتى وصلنا الفندق.

عندما توجهت إلى السفارة فى اليوم التالى استوقفت سيارة تاكسى كان سائقها يهودياً مغربياً، قال لى وهو يحاول أن يستظرف: أريد أن اسمعك مطربة إسرائيل الأولى، ثم وضع شريطاً مستهلكا يبدو أنه يحتفظ به منذ عشر سنوات على الاقل. وإذا بمطربة إسرائيل الأولى تغنى أغنيتها الشهيرة: «الهجر أهون من عذابى فى قربك، ولا شفت يوم اندم عليه وأنا جنبك».

إنه صوت ام كلثوم ليس فى ذلك شك، وعندما لمح السائق دهشتى قال

متفاخراً :كل شرائط ام كلثوم عندى فى البيت، وهذا هو الشريط الوحيد فى السيارة، أسمعه عندما أحاول انعاش نفسى.

قلت له: لابد أنك استثناء هنا فى إسرائيل.

فقال: لماذا تقول ذلك؟ معظم اليهود العرب يعشقون أم كلثوم، ألم أقل لك منذ قليل انها مطربة إسرائيل الأولى!.

كان الشئ الوحيد الجميل فى السفارة أننا وجدنا لطفى عليوة قد عاد من أجازته بالقاهرة، وبطبيعة الحال علم بما حدث معنا وأبدى أسفاً حقيقياً وندماً على أنه لم يكن موجوداً وقت وصولنا.

ولم يسترح الرجل إلا عندما شعر بأننى انجزت ما جئت من أجله وأننى لست بحاجة لليهود ولا للسفير، ولأن موعد السفر إلى القاهرة كان فى ذات المساء فقد أصر لطفى على اصطحابنا معه في السيارة ليرينا تل أبيب ويافا.

وحملنا الرجل إلى تل أبيب «التى لم نرها»، وقفنا أمام محلاتها التجارية.

وتأملنا فترينات عرض المحلات بأسعارها الخرافية التى قال عنها لطفى أنها تساوى ثلاثة أضعاف السعر الذى تباع به فى أوربا وأمريكا، وأن الأمر لا يتوقف على البضاعة فقط، فتل أبيب هى أغلى مدينة فى العالم، وساكن تل أبيب يتفوق فيما يدفعة على دافعى الضرائب فى العالم كله لدرجة أن مشاهدة التليفزيون والاستماع الى الراديو وضعوا لهما ضريبة، لكن يعوض ذلك أن دخل المواطن الإسرائيلى من أعلى الدخول فى العالم والبركة فى المعونة الأمريكية التى توزع عليهم بالقسطاس!.

وعندما طلبت منه أن أرى المكان الذى اغتيل فيه رابين كنا - بالصدفة - نمر إلى جواره، ركن سيارته وهبطنا منها وتجولنا فى ميدان ملوك إسرائيل. شرح لنا لطفى كيف كان رابين يخطب فى شعبه من هذه الشرفة وكيف تسلل اليهودى اليمنى

ايجال عامير من خلف هذا المكان ليصعد إلى رابين ويقتله.

وأكتشف من خلال حوارى مع لطفى عليوه أنه غارق حتى اذنيه فى تفاصيل القضية ولم يبخل على الرجل بأرائه فيما يحدث. إنه شاب مصرى بمعنى الكلمة.. يتمنى كل أب أن ينجب ولداً مثله، ومن المؤكد أنه سيكون شيئاً عظيماً ولكن بعد أن ينتهى عمله بسفارة مصر فى تل أبيب.

وتقودنا سيارة لطفى إلى يافا حيث يسكن على الكورنيش، إنها أجمل بكثير من تل أبيب، طابعها عربى خالص، باستثناء العمارات الشاهقة التى تطل على الكورنيش. والذى يعرف منطقة بحرى فى الإسكندرية سيقول أن يافا هى «بحرى» الذى تفوح منه رائحة السمك ورائحة الجدعنة ورائحة القهوة من المقاهى المنتشرة على الكورنيش.

وتوقف لطفى أمام مطعم عربى مزدحم بالعرب والإسرائيليين، وقال: هذا هو مطعمى المفضل وسنتناول فيه طعام الغداء، ولكن الأهم من الأكل هو عصير الليمون الذى يعده بإبداع ليس له نظير. وصدق عليوه، فقد كان العصير أروع ما شربنا، ولا أظن إننى تذوقت عصير ليمون بهذا الجمال من قبل!.

وتعجبت من إقبال الشباب الإسرائيلى على شراء ساندوتشات اللحوم من بائع عربى، ولكن عندما تذوقت اللحم زالت دهشتى. وجلس صاحب المطعم معنا وقال إنه يتمنى أن يفتح فرعاً على كورنيش الأسكندرية، ثم تأسى قائلاً: ولكن هذا مستحيل.. إننى أحمل جواز سفر إسرائيلى.

وظللت اتابع زبائن المطعم من شباب وفتيات جيش الدفاع الإسرائيلى بأزيائهم الزيتية واصرارهم على أن يلتهموا الساندوتشات ويشربوا عصير الليمون فوق المقاعد التى وضعها صاحب المطعم على الرصيف.

قلت للطفى وهو يوصلنا للفندق استعداداً للسفر: من سوء حظنا إنك لم تأت

إلا اليوم، كانت الأمور ستتغير كثيراً لو كنت أول من رأيناه فى السفارة.

فرد لطفى عليوه: أعتقد أن المهمة الصحفية المحاطة بالصعاب نكهتها ألذ من عصير الليمون، ولن تشعر بها الآن، وحسنا فعلت إنك ركزت فى الشارع الفلسطينى لأن الأمور هنا تسير سيرا روتينيا ولن تخرج برأى واحد، فلو تحدثت مع خمسة ستجد نفسك غارقاً بين ستة أراء!.

كان متبقيا على موعد الطائرة ساعتان، صمم لطفى على أن يقضيهما معنا فى الفندق حتى يوصلنا فشكرته وأصررت أن يعود إلى السفارة لأننى فهمت أن موعد إرسال الرسالة اليوم، لكنه كان مصراً فأقسمت له أننى تحدثت تليفونيا مع السائق فى الصباح وسيأتى فى موعده.

خمس ساعات فقط قضيتها مع لطفى.. فهل هذه المدة كافية لكى تحب انساناً وتتمنى أن يصير صديقاً لك؟ لقد شعرت أنها خمس دقائق فقط، ومع ذلك فقد عرفت خلالها كل شئ عنه وعرف هو كل شئ عنى، واكتشفنا أن لنا اصدقاء مشتركين فى القاهرة!. هذا هو المصرى الحقيقى الذى يلقاك فى سفرك ولا يتركك إلا مخلفا وراءه بصمة لا تمحى.

وحان وقت العودة.. وفى الموعد يصل موفق. كانت يداه ملخطتان بالشحم وهو يعتذر لى قائلا: عملتها معى السيارة مرة أخرى يا أخ عاطف، أنا آسف، لكنى أحضرت زميلاً لى بسيارته ليقوم بالمهمة.

قلت له: أوعى يكون «ياكوف».

فضحك وقال: لا أنه شاب عراقى.. أو بمعنى أدق إسرائيلى من أصل عراقى ويحب المصريين جداً وهو الذى أصر على توصيلكما.

وعرَّفنا موفق بزميله. كانت ملامحة أقرب إلى المغاربة منها إلى العراقيين، ولم نتكلم طوال الطريق إلى المطار إلا فى ماركات وموديلات السيارات الاكثر شيوعاً

فى إسرائيل وفى البلاد العربية.

ومثلما حدث فى مطار القاهرة حدث فى مطار بن جوريون، فريق من المحققين يسأل كل مسافر لمدة ربع ساعة، وعندما حان دورى كنت قد حفظت الأسئلة والرد عليها: نعم.. نعم.. لا.. أحيانا.. أبداً وهكذا.

حتى مضيفات الطائرة قدمن سندويتشات «اللانشون» التى اعتذرنا عن عدم قبولها أيضاً.

وبعد ساعة وصلت طائرة شركة «العال» الإسرائيلية إلى مطار القاهرة، حين قرأت اللوحة الشهيرة المكتوب عليها: «أدخلوا مصر بسلام آمنين». طفرت الدموع مرة أخرى وكأننى كنت فى معتقل المغول وأفرجوا عنى بعد نصف قرن.

جريت مثل المجنون ناحية ضابط الجوازات لأكون أول من ينهى اجراءاته.

ـ قال لى ضابط الجوازات المبتسم: الحمدلله على سلامتك.

ـ الله يسلمك.. وحشتونى

ـ يا راجل.. أنت لم تغب أكثر من عشرة أيام

ـ ظننتها عشرة أعوام

ـ وكيف الحال هناك؟.

ـ انظر إلى وجهى وانت تعرف

نظر الضابط إلى وجهى ملياً ثم قال بأسف:

ـ يا اه.. للدرجة دى!.

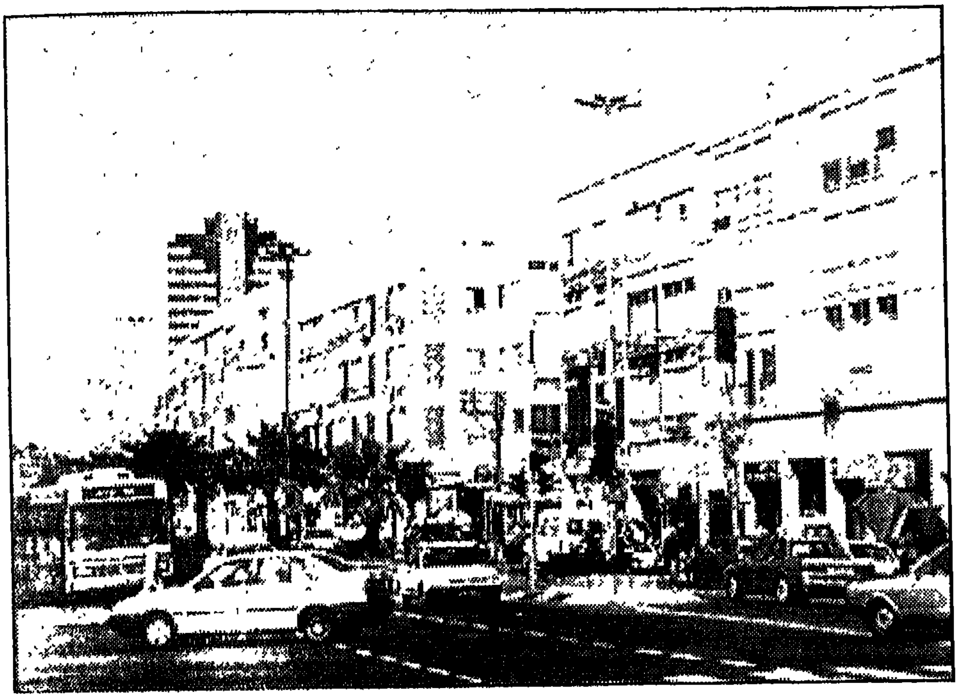
الفصل الثالث عشر

صور من هناك



بعدسة: إبراهيم مسلم

شارع «ديز نجوف»



فى نفس هذا الموقع من شارع «ديز نجوف» بقلب تل أبيب. وفى أتوبيس مشابه لذلك الأتوبيس، فجر أحد شباب حماس نفسه بين الركاب الإسرائيليين.

هذه الصورة عقب الأنفجار بأسبوع.. وهذه المبانى هى بيوت ومصالح تل أبيب، فهنا الشوارع متشابهة والبيوت أيضاً، ولم تعرف هذه المدينة الأبراج العالية إلا بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فمصر كانت ـ ولا تزال ـ مبعث الخوف لديهم.

خائف من المستقبل



حين جلست إلى محمد بسيونى سفير مصر فى تل أبيب كان متشائماً من المستقبل فيما لو أطيح بصديقه بيريز وجاء نتانياهو. السفير بسيونى كان خائفاً على مستقبل السلام وشكك فى أن تلتزم حكومة الليكود بالتزامات حكومة العمل.. وشكك فى إعادة الإنتشار بالخليل.

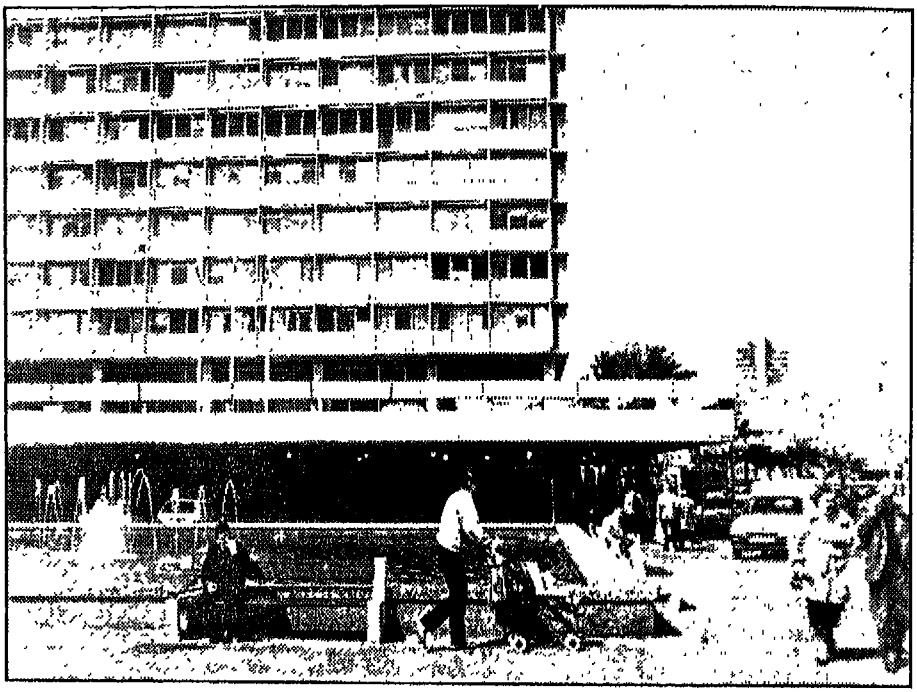
وللأسف تحققت كل مخاوف الرجل الذي يعرف اليهود ربما أكثر مما يعرفون هم أنفسهم.

عصا التأديب



وحين جلست إلى محمود كريم سفير مصر فى غزة كان متشائماً من استكمال المسيرة السلمية وشرح لى الإجراءات الغاضبة التى اتخذتها إسرائيل فى صورة عقاب جماعى يهدف إلي التجويع أكثر مما يلوح بعصا التأديب. كان سفيرنا غاضباً من إصرار إسرائيل على عقاب المرضى ومنعهم من تلقى العلاج حتى مات ١٨ مريضاً بالفشل الكلوى والسرطان.

هنا مات رابين



هذا المبنى هو بلدية إسرائيل الـذى يشرف على ميدان أطلقـوا عليه اسم «ملوك إسرائيل»، وفى هذه الشرفة المطلة على هذه النافورة وقف إسحق رابين يخطب فى شعبه مبـشراً بالسلام ومعدداً لمزاياه، وفى اللحظة التى ارتفع فيهـا التصفيق لرئيس الوزراء الإسرائيلى كان الشاب اليمينى المتطرف إيجال عامير يضع كلمة النهاية فى حياة الجنرال رابين.

لن نضع سلاحنا



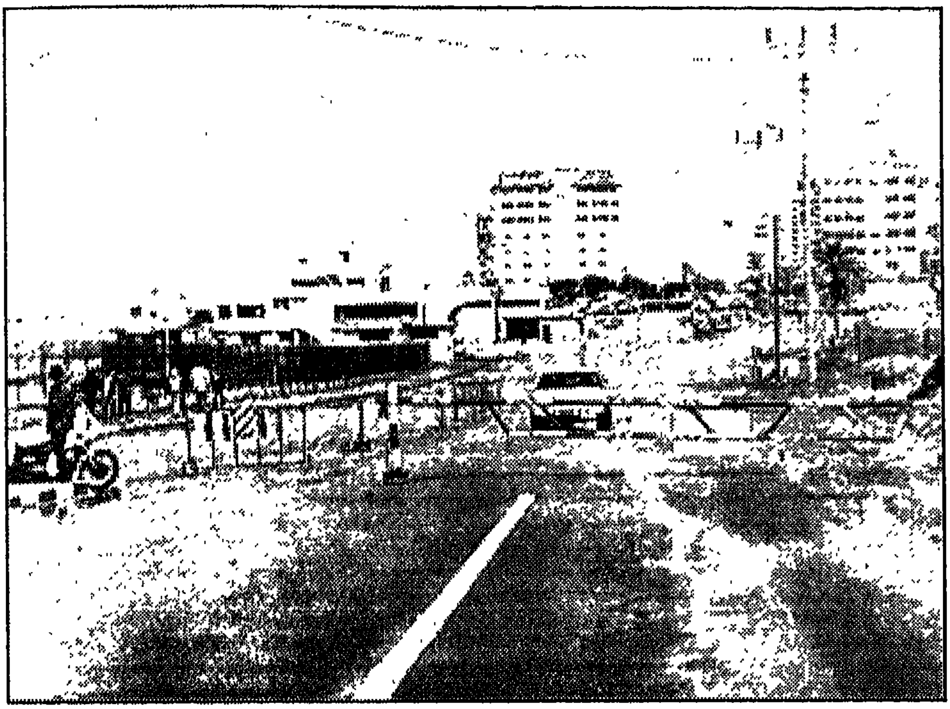
الشيخ عماد الفالوجى. كانت نظراته أمضى من كلماته وهو يقول لى أن حماس لن توقف عملياتها العسكرية طالما بقيت إسرائيل تحتل فلسطين وتحرمها من عاصمتها القدس.. وطالما كانت هناك الخليل فى قبضة الإسرائيليين.. وطالما ظلت معتقلات إسرائيل مليئة بالفلسطينيين.

شيخ الصامدين.. والرافضين



الدكتور حيدر عبد الشافى أفنى عمره فى المقاومة والصمود من أجل أن يرى الدولة الفلسطينية المستقلة، لم يشأ أن يترك غزة وينفى نفسه في الخارج ويناضل بحنجرته، بل أعطى مثلاً يحتذى للنضال، وكشف نوايا إسرائيل فى مفاوضات واشنطن، ولذلك عندما تم توقيع إتفاق أوسلو كان أول المعارضين له، ومع ذلك وقف شعب فلسطين كله خلف حيدر عبد الشافى ومنحوه اصواتهم فى انتخابات المجلس التشريعى.

هذه هى غزه



العمارات الحديثة بدأت ترتفع فى غزة بعد تطبيق اتفاقية الحكم الذاتي، والسيارات الفاخرة عادت من المنفى، وبوابات الأمن «الفلسطينية» حلت محل بوابات الأمن الإسرائيلية ولكن هل يشعر هؤلاء المارة بالحرية..؟

هذا هو السؤال.

أريز الرهيب



«على مـدد الشوف» مـسافة فـاصلة بين جنديين فلسطينيين يـقفان علـى حدود غزة، وكـتيـبة إسـرائيلية لا تدركـها الأبصار تحمل أسلـحة على أهبـة الاستـعداد وليست أفـواهها مـوجهة ـ مـثل تلك البندقيـة ـ إلي الإرض . إنه الطريق إلى أريز الرهيب الذى يفصل بين حياتين مختلفتين كل الأختلاف.

حارس المرمى



عشاق النادى الأهلى تعلقوا بهذا الرجل فى أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. كان مروان كنفانى من أفضل حراس المرمى فى مصر وأصبح الآن من أفضل مستشارى الرئيس ياسر عرفات. وما بين المرحلتين مشوار طويل رسمه استشهاد غسان كنفانى ـ شقيق مروان ـ فقرر الأخ الأصغر أن يكمل مسيرة الأخ الأكبر. وألقى مروان بنفسه فى يم القضية الفلسطينية حتى أصبح من رموز السلطة الوطنية الفلسطينية ومن أعضاء المجلس التشريعى الفلسطينى.

مى.. وفدوى.. وريم



للحظة مرت كالخاطر تمنيت أن تكون إحداهن ابنتى. وحين اقتربت منهن وتأملت الملامح والبراءة والضحكة والرؤوس النبيلة عرفت أنهن شقيقات عائدات من المدرسة.

يسكن هنا.. داخل بيت المقدس.. فى شوارع القدس العتيقة. لم تبرح احداهن هذا المكان.

سألتهن عن مصر.. فقلن: نعم نعرفها.. أم الدنيا.

سألتهن مرة أخرى: هل تودن زيارتها؟.

فقلن فى صوت واحد: لن نترك القدس أبداً

الويل.. لمن؟



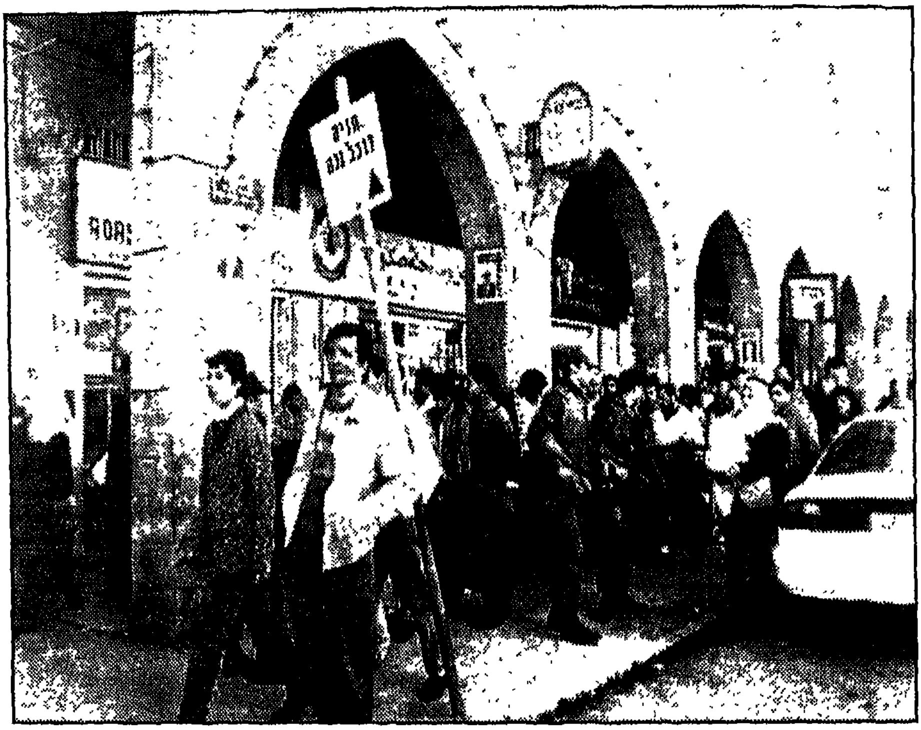
على سور القدس كتب أحد الفلسطينيين «الويل» ولم يكمل العبارة على طريقة «الحدق يفهم»

أين الهوية؟



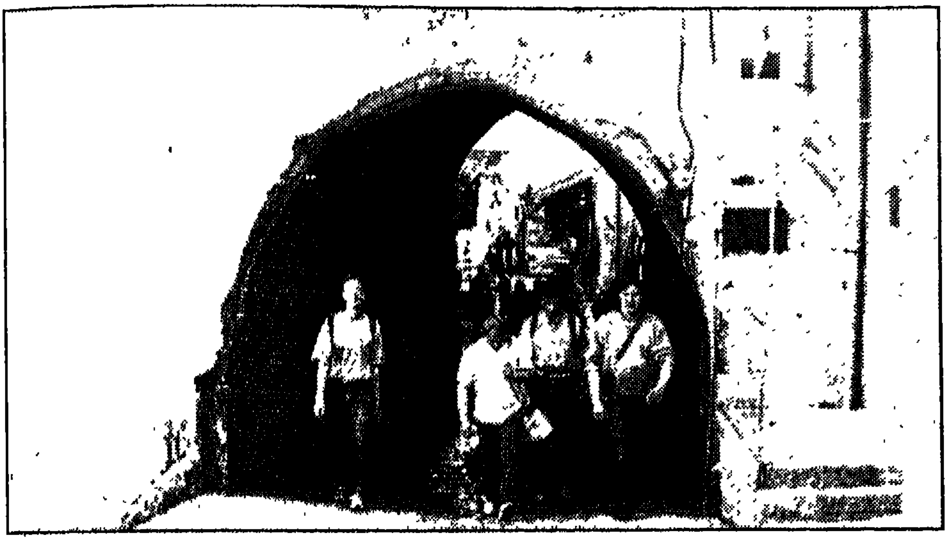
هؤلاء الجنود الإسرائيليين على جانبى باب العمود يسألون الرائح والغادى «أين الهوية» إذا نجوت من أحدهم فلن يتركك زملاؤه الآخرون.

مطحنة صلاح الدين



شارع صلاح الدين أشهر شوارع القدس. مزدحم دائما رغم هذه الرشاشات الإسرائيلية وتلك الأصابع المتأهبة على الزناد. من هذا الشارع يمكن أن تشترى كل شئ وأى شئ يحمل رائحة القدس الشريف.. وخاصة البن.

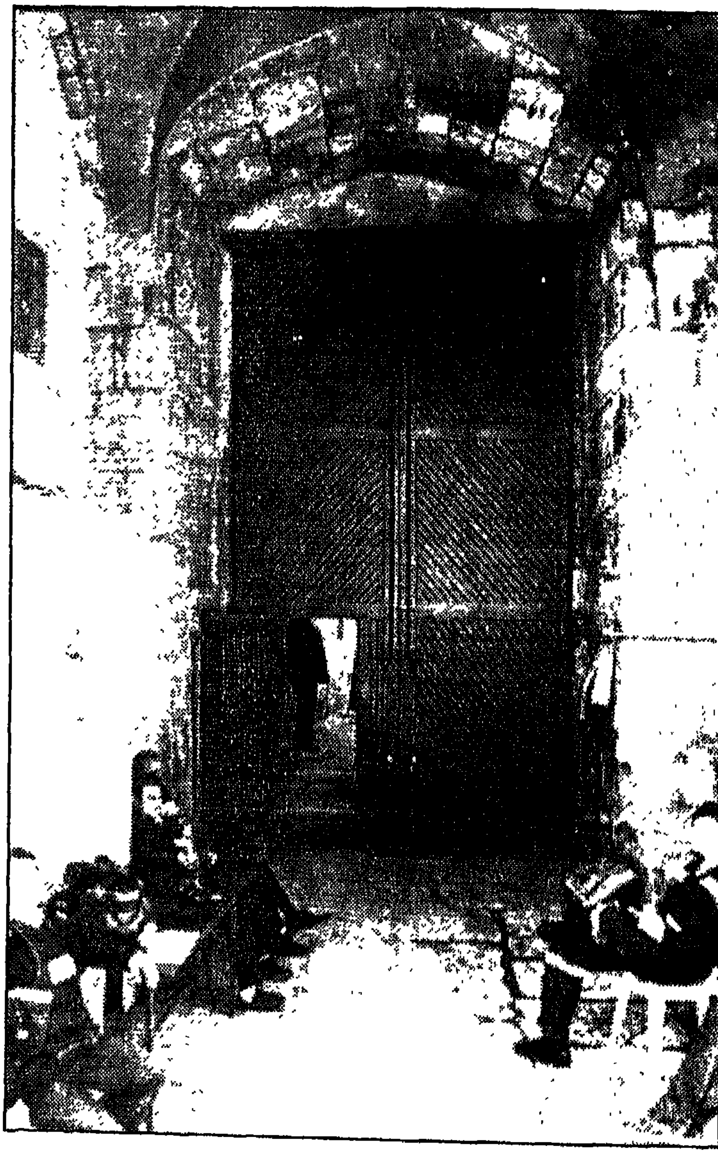
حلال عليهم.. حرام علينا





تربح إسرائيل كثيراً من السياحة الدينية، من كل أنحاء العالم يأتى السياح إلى القدس لرؤية المسجد الأقصى وكنيسة القيامة وشراء تذكارات خالدة من المدينة الخالدة.

عفواً.. لهذا المشهد المؤذى



على أحد الأبواب الخارجية للمسجد الأقصى وقبة الصخرة جلس هؤلاء الجنود الإسرائيليين ليرحبون بالسياح وليستوقفوننا ويسألوننا إلى أين تذهبون؟. علي كل باب يوجد أمثال هؤلاء، وقفت فى الجانب الآخر من البوابة حتى لا أراهم.. ولكننى رأيتهم بعد ذلك فى هذه الصوره.

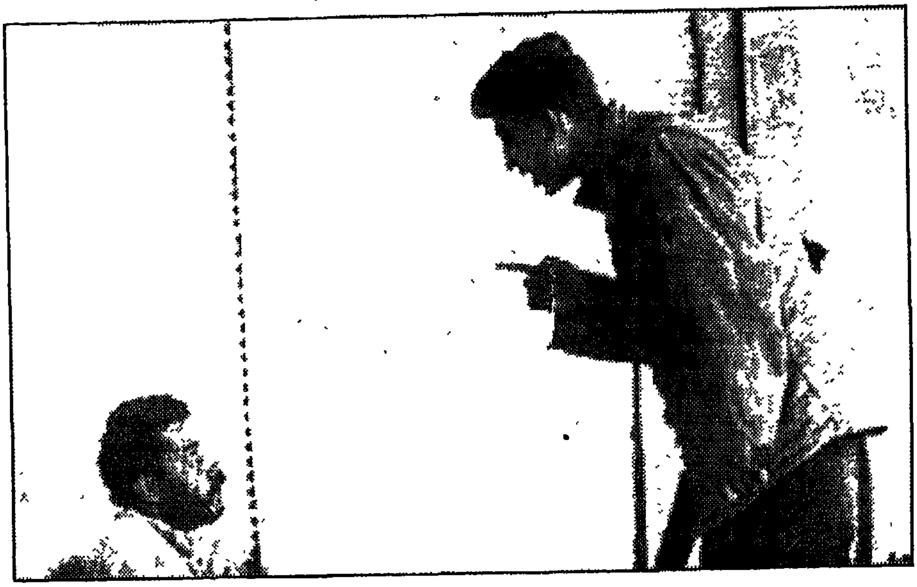
ولا تعليق!





ملحوظة: لايوجد مسلم واحد بين هؤلاء السياح الذين يحتلون المساحة بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

لا سلام ولا كلام





فى شوارع الخليل لا يوجد إسرائيلى منزوع السلاح، بل أن السلاح الذى يحمله المستوطن مزود بتلسكوب حتى يصيب «العدو الفلسطينى» صاحب الأرض فى الصميم، إنهم يملون ارادتهم وعلى هذا الفلسطينى أن يجلس هكذا وينتظر.. فقط!

الفهرس

رقم الايداع

٩٦ / ١٣١٦٨



الكتاب والكاتب

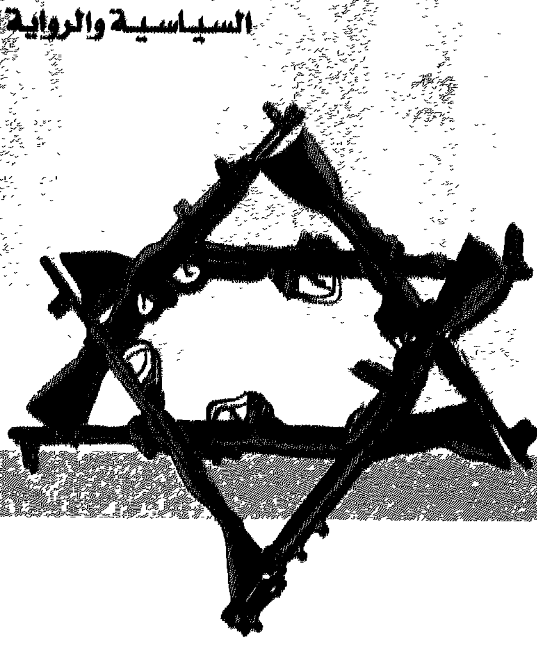
ذهب عاطف حزين إلى اسرائيل يبحث عن مستقبل السلام، فإذا بثعابين الماضى تطل برؤوسها اللعينة، «وتبخ» سمومها فى وجهه، وتنسيه المهمة التى ذهب من أجلها!

أجرى حوارات مع الجوع وليس الجوعى، مع المرض وليس المرضى، ومع الموت وليس الموتى. يحث فى شوارع تل أبيب والقدس وغزة عن حروف كلمة السلام المبعثرة، فلم يجد إلا ثلاثة حروف: ح.. ر.. ب!

ويبدو أن عاطف حزين رئيس قسم التحقيقات الصحفية بجريدة «أخبار اليوم» قد نسى هويته الصحفية فى مطار القاهرة، ووصل إلى اسرائيل وهو يحمل هوية طفل بورسعيدى عمره عشر سنوات.. له صولات وجولات مع الاسرائيليين، بدأت لحظة مولده، ولم تنته إلا لحظة رفع علم بلاده على الضفة الشرقية لقناة السويس.

ومع ذلك استطاع ذلك «الطفل» أن يقدم مزيجا مدهشا من الرؤية السياسية والرواية الأدبية ومن أدب الرحلات، وأدب الاعترافات، وفن التحقيق الصحفى .. وإن شئنا اختصار كل ذلك فى جملة واحدة.. فهذا كتاب جديد فى فرع جديد من الكتابة اسمه الأدب السياسى.

الناشر



دار العقل العربى
الكوم الاخضر - فيصل - القاهرة
ت: ٣٨٣٢٠٧٦